
عالم النساء الوحيدات
لطفية الدليمي



المؤلف: لطفية الدليمي
عنوان الكتاب: عالم النساء الوحيدات
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت – الحمراء – شارع ليون – بناية منصور – الطابق الأول –
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ – ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www. daralamada. com Email: info@daralmada. com

سورية – دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ – تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F. K. A. - Damascus - Syria
P. O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد – أبو نواس – محلة ١٠٢ – زقاق ١٣ – بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo. com

ISBN: 978-2-843061868

لطفية الدليمي

عالم النساء الوحيدات

رواية قصيرة

وقصص

عالم النساء الوحيدات

رواية قصيرة

صباح هذا اليوم وأنا في غرفتي، اكتشفت أنّ الغرفة تزدهر بمعان جديدة وحياة دافقة، وقد أصبحت مخلوقة شفّافة عذبة، أشبه بزهرة ليليّة تفتّحت استثناء في النهار بعد مليون عام من تاريخها النباتي الليلي، قلت: طفرة لا وراثية.

كل ما في الغرفة يشعّ بنعمة حب ابتكره اثنان، أنا وهو، الستائر القديمة أشرقت وماجت بدفء ملوّن، وتحوّلت الجبال في لوحة "هنري روسو" المستنسخة إلى غيوم من لؤلؤ وضوء، والغجري نائم بوداعة والوحش الذي يتشمّمه صار أسداً من مخمل ورغبة ساخنة، وتكاد الأنغام تسيل من الماندولين الملقى قربه عند أوّل آهة تندّ عن الغجري النائم، وصار كل شيء جزءاً من فردوس ورغم الألم المريع في رأسي كان الفرح يمتلك جسدي ويربك روحي، لم أنم الليلة الماضية، أمضيت ساعات وأنا أقرأ مذكرات الآنسة "م" رغم أنّني أكره إعادة صياغة الأحداث في عبارات ميتة تنقصها الدوافع.

فرِحْت بالمذكّرات التي عثرت عليها في معرض الكتاب الدولي، وتذكّرت وقفتي فوق ذلك المرتفع المُشمس المطلّ على نهر دجلة في ضاحية من ضواحي المدينة، كنت أحسّني صاعدة من مملكة الماضي، من الرماد والخرائب والظلال، تأمّلت آلاف السنين الذابلة المتساقطة وراء المسيرة الإنسانية في خندق الأزمنة البعيدة، ولم أجد سوى آثار مرور البشر وحضاراتهم، كانت سنواتي مثل رتل نمل صغير سار على

أرض متوهِّجة فتهاوى.. كنت أقف فوق السنوات: قلت وداعاً لسنواتي الآفلة، لم أكرهها ولم أندم ولم أتشبّث بها، بموتها أدركت حاضري وبتحوّلها إلى رماد نهضت أنا العنقاء السعيدة، لست مدينة للرماد ولا الظلال ولا الخرائب، أنا مدينة لضوء هذا الحب وأنا أحيا حاضري بقوة رغم الألم في رأسي. كنت أنظر إلى تدفّق دجلة الأزلي وأحسّ بنشوة الحياة في جسدي..

كانت يدي مطبقة على قبضة من أوراق التوت الجافّة وكتلة من الغرين المتجمّد اليابس، سحقت الأوراق والكتلة في يدي ورميت بقبضة التبن والتراب إلى النهر.. وأنا أصيح: وداعاً يا سنوات الرماد..

وتلاشت الأوراق المسحوقة وسط الأمواج الصغيرة المتلاحقة وترسّب الغرين إلى قعر النهر حيث الأسرار المائية وممالك الأسماك والغرقى وجسد النهر القديم ثم تفجّرت الفقاعات تباعاً، وبقيت أنا فوق المرتفع المشمس..

تذكرت هذه الحادثة وأنا أفتح الدفاتر التي عثرت عليها بمحض المصادفة (أهي مصادفة حقاً أن أعثر أنا من دون ملايين المدينة على دفاتر الآنسة "م" واعترافاتها؟). لست أدري كيف أجيب على تساؤلاتي، لكني تذكّرت حادثة وقوفي على ذلك المرتفع المشمس في ضحى يوم حار وحولي ازدهار العشب وتدفّق الماء والأشجار التي توجز حقيقة الحياة في "ثمرة" وابتسمت وانا أقلب الدفاتر، بعض الناس ومنهم الآنسة "م" يتشبّثون برماد الزمن القديم ويدمِّرون حاضرهم باندفاعهم المجنون نحو استحضار الماضي يستذكرون النشوات والأشواق الهالكة والوجوه المنطفئة ورعشات القلوب الميتة، يبكون ويأسون ويندمون وينزلون بأنفسهم القصاص ويعيشون بالمقلوب

ولا يحيون زمنهم قط.. هؤلاء يرون في نسيان الماضي جحوداً وقلّة حياء وعقوقاً، فماذا يرون فيمن يغتال يومه؟..

يغتال ما هو حي وساخن ليوصل ما بين الخرائب الماضية والحلم الآتـي؟ مثل هـؤلاء البشر لا يملكون أسئلة، بل مسلّمات جاهزة، لا يتساءلون بل يستسلمون.. أحسست حينها بزهو: هنا يكمن اختلافي: أنا أثابر على صنع الأسئلة واكتشاف البشر والحياة.. وها هي دفاتر الآنسة "م" تثير لديّ بعضاً من الأسئلة، لماذا جاءت إليّ وحدي؟.. هذه الأسرار والاعترافات الساخنة والأحلام؟.. لعلّ الآنسة "م" كانت تعرفني فدبّرت الأمر قاصدة أن تصل دفاترها إليّ. وهي تعرف ضعف مقاومتي لسحر دفاتر مكتوبة بخطٍّ نسوي ومُلقاة على الطريق..

كنت في ذلك النهار الربيعي الدافئ خارجة من معرض الكتاب المُقام على أرض المعرض الدولي. يداي مثقلتان بأكياس الكتب الجديدة، وأنا نصف فرحة، لم أكن فرحة تماماً لأنّني وحيدة، والوحدة تمتصّ فرحي كما يمتصّ العلق الدماء، ولكنّي رغم ذلك كنت منتشية بحصولي على هذا العدد من الكتب الجديدة، نصف فرحة، يعني أن أكون نصف حزينة أو بائسة أو غاضبة، وهذا يتطلّب منّي أنْ أحفظ توازني، ولا أترنّح إلى أحد الجانبين أكثر ممّا ينبغي.

قلت: عليّ أنْ أنسى كوني وحيدة على هذا النحو القاسي.. فها هي "كلمات" الرجل تزدهر في ذهني وتشتعل وهي تحيي مباهج مدهشة اخترعناها وبقينا أياماً نجهد لامتلاكها وقاومنا للاحتفاظ بها، سرت حاملة كتبي بعد أنْ أنفقت كلّ ما كان معي من نقود ولم أسْتَبقِ سوى أجرة التاكسي "كنت أنوي شراء ستائر جديدة لغرفتي فقلت لا بأس، ستائري لم تبل تماماً، وسأشتري أخرى جديدة في وقت آخر..

واشتريت بدل الستائر أحلاماً وأساطير وقصائد مختلجة...

مضيت حاملة الكنز متَّجهة نحو البوابة الكبيرة، وكان عليّ أن أجتاز ممراً طويلاً جداً يقود إليها بعد انعطافتين وبغتة وأنا أستدير عند المنعطف رأيت عند حافة المرج الأخضر تحت شجيرة الفيكس الدائمة الخضرة رزمة من الدفاتر: ثلاثة دفاتر خضراء مربوطة بشريط بنفسجي مِمّا يُستعمل في ربط علب الهدايا وباقات الزهور:

توقّفت، نظرت حولي، لم يكن هناك من أحد سواي، أومأت الدفاتر لي وأغرتني وتضرّعت إليّ مثل مخلوقات ضالة تستنجد بمنقذ، تلفتُّ مرة أخرى لم تكن هناك سيِّدات يدخلن أو يخرجن من معرض الكتاب، بل كان هناك جمع من الرجال من بينهم تجّار كُتب وهواة قراءة فقراء وفضوليون وفتيات يشرفن على بيع الكتب وحرّاس وصبيان يبيعون علب عصير الفواكه..

مددت يدي والتقطت الدفاتر وقرأت على زاوية أحدها بخطّ نسَوي متردِّد وناعم يعلن عن خجله "مذكّرات الوسادة" تملّكني شعور غامض وأنا أحمل الدفاتر بين يدي، وتبيّن لي بعد قليل أنّني يجب أن آخذها، فثمّة أسباب عدّة تدفعني لذلك..

أهمّها خشيتي من أن تقع هذه المذكّرات التي خمّنت أنها قد تكون مثيرة – بين أيدٍ عابثة لا تجيد احترام إنسانية هذه المرأة التي سفحت تاريخها على صفحات الدفاتر وثاني هذه الأسباب خوفي من أن يستغلّها مدَّعٍ – كما حدث لي ذات مرة – فيعلن أن السيِّدة كتبتها له ومن أجله.. وعلى أيّ حال لم يكن أمامي سوى أن آخذها وأمضي، على أنّني لم أتجنّب الشعور ببعض التوجّس، وبعد قليل، ببعض الندم لأنني أخذتها، وصرت مسؤولة بشكلٍ ما عنها، مهما كانت درجة هذه المسؤولية، وأحسست أنّني أضفت همّاً جديداً إلى همومي..

وفتحت عقدة الشريط وقرأت على الصفحة الأولى عنواناً داخلياً بخطٍّ معتَنى به على طريقة النساء.

"مذكرات الآنسة م"

غرفة النساء الوحيدات

تحت العنوان دُوِّنت هذه العبارة الرومانسية بخط رقيق:

"لم نكن قد تعهَّدنا بشيء تجاه هذا العالم"

نوفاليس..

وخُيِّل إليَّ أنَّني أعرف صاحبة هذا الخط الرصين رغم رقَّته، لا بدَّ أنّني أعرفها، سأعرفها..

وأحسست أنّ شيئاً ما غريباً يقتحم حياتي ويشغلني، كم أهوى اكتشاف خلجات النساء الوحيدات شبيهاتي!!

كنت منفعلة ذلك الانفعال المبهم الذي تثيره علبة الأسرار قبل فتحها، قلت سأقرأ المذكّرات بعد الظهر، وجلست على أريكة كبيرة بعد الغداء، لم آكل إلا قليلاً بسبب انفعالي – أشعلت سيكارة وجلست أستمع إلى موسيقى أحبها، سوناتة لمندلسون وأغنيات لفيروز، كنت أحس بشيء يشبه السعادة أو لعله السعادة نفسها، ما أدراني؟؟

وانتزعني رنين الهاتف من نشوتي، واقتحمني صوته، لم يكن هو صوته الذي أحب، كان مغلّفاً بطبقة من الحذر والمجاملات الباردة، اضطربت، كان صوتي بادي الانفعال، كلانا يعرف مزاج الآخر من نبرة الصوت ونهايات الجُمل المبتورة والصمت بين العبارات وذلك الملل الذي يطعن الكلمات ببرود..

نعرف ما إذا كنا واقعين في الحزن أو الغضب أو العتب أو مستسلمين للشوق أو الجنون... قلت سأموّه انفعالي بالضحك، ضحكت وقلت له:

– ستأتي هذا المساء، ألن تاتي؟

ارتعش صوتي قليلاً ثم تلاشى في لهفة صادقة.

– إذا دعوتني سآتي، أيمكن أن لا أجيء؟.. أريد أن نتحدّث، وأراك وأنت تصغين إليّ فتنعكس المعاني وظلالها في عينيك وعلى وجهك وأصابعك وصوتك..

– سأنتظرك، وسأعدُّ عشاءً خفيفاً، وطبقاً من الحلوى التي تحب..

– ماذا تفعلين الآن؟.. ماذا ترتدين؟..

– قبل قليل كنت أجفّف شعري، احتسيت القهوة، استمعت إلى شيء من موسيقى، خابرتني عائدة، قرأت: قاطعني بنفاذ صبر: ماذا ترتدين.. ؟

– تنورة طويلة بنقوش شرقية مع شال مثلها وقميص أزرق.

– يا إلهي، لا بدّ أنك تبدين رائعة في هذا الزي الغجري ..

– الآن إذ أسمعك، نعم، أنا جميلة..

– ماذا قرأت؟..

– انتهى شريط الموسيقى – معذرة – لحظة واحدة – أفكّر بِبَحثٍ عن النساء الوحيدات – أعددت كل المصادر تقريباً: ووضعت الخطوط الأساسية .

– من معك، أي عطر يفوح حولك.

– الآن؟ لا أحد سواك، بعد قليل ستحضر صديقتي عائدة وقد تمضي المساء معي فهي بحاجة إلى أن أعينها، لديها مشاكل جديدة..

– حقاً؟..

– نعم.. ماذا في الأمر؟

– تحتمين بها منّي؟

– أنا؟.. أنا أحتمي بك من الدنيا ومن نفسي أحياناً، أنتظرك..

– إلى اللقاء..

قال ذلك وسمعته يطلق زفرة طويلة عرفت معها أنه لم يقتنع بما سمِعَه مني...

وقلت، وأنا أبتلع غصّتي.. حسناً، سأقرأ.. وأخذت الدفتر الأوّل:

مذكرات الآنسة "م"

غرفة النساء الوحيدات

لم نكن قد تعهّدنا بشيء تجاه هذا العالم

نوفاليس

أفرح، وتعروني رعشة عندما ينادونني "الآنسة" أنسى سنواتي وجفاف أيامي، والتجاعيد الزاحفة على وجهي وحول عيني – يزعمون أنّ لي عينين جميلتين – وأزهو بالكلمة مثل مراهقة، أشمّ رائحة الانفعال تفوح مني – وتعلو وجهي الذابل نضارة طارئة، تتلاشى عند زوال هزة الفرح، العابرة، فيعود الشحوب إلى وجهي ويعتكر حزني القديم فيه.

في الأيام الأخيرة صارت كلمة الآنسة توحي بقدر من السخرية والإشفاق - ولكنّني مثل كل المزهوين بأنفسهم - أعمد إلى وضع غشاء التجاهل على بصيرتي، ولا أعبأ بما تنطوي عليه الكلمات من تعريض وإيحاءات جارحة، ولم أكن أهتم بنبرة الضواري في أصوات الرجال من حولي، النبرة المموّهة ببراعة وخبرة عصور القنص الماضية، ولكنّني لم أنحدر يوماً إلى مستوى الطريدة..

أنا الآنسة "م" آنسة كبيرة (غداً أبلغ الثامنة والثلاثين) مرّت عليّ عقود من الزمان مزجت فيها الحقائق بالمرارة والخرافات بالأفراح، واختلطت فيها متعتي القليلة الحقيقية بمُتع الخيال، أنا نباتية - لم أذق طعم اللحم في حياتي - ولست أدري لماذا، لكنني أستمتع بالأطعمة الجيّدة، وبِسماع الحكايات المدهشة، عندما كنت طالبة صغيرة في المدرسة، كنت ألتهم الكتب المقرَّرة خلال الأسبوع الأوّل من بداية العام الدراسي ثم ينتابني الملل من المدرسة.

فكنت أجد لنفسي حلولاً لقتل الضجر. أحمل معي كتب الجيب الصغيرة في حقيبتي وأدسّها في الدرس تحت الكتاب المقرّر - كنت أجلس في الزاوية الأخيرة للصفّ - فأقرأ رواية "مرحباً أيّها الحزن" مع تضاريس سطح العراق ونصب الفعل المضارع مع قصة "السندباد البحري" وكتاب "الأمير" لمكيافيلي مع درس النسبة الثابتة في الهندسة ورواية "عقدة الأفاعي" مع صحة الجهاز العصبي..

ولطالما كنت أحتفظ بالكتب في غرفة على سطح بيتنا بين طيات الأغطية والوسائد، فإذا ما صعدت إلى السطح لأنام وأوى الجميع إلى أسرّتهم أقرأ كتابي مستعينة بضوء القمر، أخفي الكتاب - الذي غالباً ما يكون منزوع الغلاف - تحت حافة المفرش المطرّز وقد أهرّبه معي داخل رغيف الخبز الساخن، عقود من الزمن مرّت وحدثت التحوّلات في

حياة الناس، رأيت الطبيعة تخمد وتموت ثم تنهض مشتعلة، شهدت حروباً، شهدت حروباً كثيرة قصيرة، وأناساً لايحصون. في كل المدن التي رأيتها - لم أرَ في الحقيقة إلّا مدناً قليلة - لأنّني لم أسافر قط إلى خارج العراق - وصارت فسائل النخل التي زُرعت في حديقة بيتنا نخلات شامخات تظلِّل المساكن التي تشوبها حرارة الشمس، ولم أعد أستطيع قطف التمر منها. أعوام كثيرة استبدلت فيها الشوارع حجارتها القديمة بالرخام اللامع والإعلانات الجديدة وتغيّرت وجوه أجيال من البشر الساعين فيها، العشّاق والعجائز والمخمورين والحرّاس والباعة المتجوّلين، كل شيء تغيّر إلا أنا، كبر الصغار الذين داعبتهم في المهود صاروا فتياناً وشباباً ثم رجالاً ناضجين تحرجني نظراتهم المختلفة، كانوا ينادونني باعتباري خالة لهم، ثم تجرّأ بعضهم أن يناديني باسمي، بل أن يضغط يدي عندما يصافحني وتغوص نظراته في عيني المندهشتين، وتهبط إلى صدري.. آه كم أصبحوا وقحين مدهشين.

مرّت بي الأزمنة وأنا ثابتة هنا، كأنّما كانت الأعوام تحاذيني دون أن تمسّني..... كم ادّعيت القوّة أمام الآخرين، ولكنّي في الحقيقة كنت أرزخ تحت ثقل الخسائر والانتظارات، أنا الآن في العمر الفاصل الذي يشعر معه المرء بضرورة ارتشاف الحياة والخوض في نهرها المضطرب دونما تهيّب، وفي ذلك مجازفة كبيرة، أو الابتعاد النهائي عنها دونما تردّد وفي ذلك الخسارة الأبدية..

كل يوم أعود بعد الظهر من عملي - تغيّرت أماكن عملي مرّات كثيرة، عملت مشرفة في مكتبة مدرسية - ثم مدقِّقة حسابات - ثم موظّفة أرشيف - ومحرِّرة في صحيفة طلّابية ثم مشرفة في مكتبة عامة.

في المكتبة وجدت عالماً لا ينتهي من الكتب، كنت أنتزع نفسي من

قاعاتها انتزاعاً وكنت أشهد أناساً كثيرين سمعت بأسمائهم وقرأت لهم وعنهم في الصحف، كان بعضهم ينبش في المراجع كل يوم، وينقل نصوصاً طويلة من الكتب القديمة، ويكتب اسمه على الصفحات الداخلية للمراجع في محاولة رخيصة لتخليد الاسم، ويضع أمامه أشياء تدلّ عليه، وحاول بعضهم مغازلتي عندما لم يعثر على مبتغاه في كتاب ولم أكن أعبأ بمحاولاتهم إلا أنّني كنت أخفي ببراعة الخدوش التي تحدثها كلماتهم الفجّة في روحي: كم رثيت لهم، كنت أبتسم بمرارة، وأعلو فوق هاماتهم – وأذهب بعيداً جداً إلى أحلامي – لم يكن أحدٌ منهم يشبه من يتجوّلون في أحلامي..

أعود إلى البيت ولدى الباب تهاجمني ريح الكآبة ورائحة الزمن والغضب الذي يتأجّج حول وجه أبي وآلام النقرس تخز مفاصله، وأنفاسه يخربها الربو المزمن، أحيّيه بكلمة واحدة هذا الأب المخيف العاجز، وأنا أحاذر من انفجار فقاعة الغضب، وينظر إليّ كاظماً حزنه وخيبته فيّ، ثم لا يلبث بعد برهة أن ينساني، وينتظر طعام الغذاء والأدوية وبعدها قدح الشاي الثقيل والسيجاره الثانية (سمح له الطبيب بتدخين ثلاث سجائر في اليوم) ويتفحصّني أبي وينظر إليّ كأنّما يبحث في هيأتي عن خطأ ما يتيح له أن يقدِّم اللّوم والنصح والمواعظ: ألست ملكهُ؟، ألم يأتِ بي إلى الدنيا كما يقول؟ أبتعد عنه، أدور في البيت، تحيط بي الجدران البيضاء – يكره أبي أي طلاء ملون في البيت – وحولي الستائر المخملية الثقيلة والأثاث القديم..

وفجأة يأخذني من هذه الكآبة شدو طيوري الصغيرة، أسمعها ترحّب بي، ثم ينعشني صوت غليان الماء في إبريق الشاي فوق المدفأة، وتحيّيني حركتي في المطبخ: ارتطام أغطية الأواني، تحطّم قدح صغير وسط السكون، انهمار الماء من الحنفية، رنين الهاتف الذي يتكرّر خطأ، وتناثر حبّات الفاصوليا البيضاء الجافّة حولي.

منذ الصباح أمسك بالكابح، وأرتدي القناع، أمّا الآن فقد حرّرتني الأصوات البيتية إلى حد ما من حالة الكبح، كنت أضع قليلاً من العطر على عنقي ومعصمي، وأغمض عيني لأتخيّل أثر رائحته المستعارة، الآن أخلع كلّ شيء، ملابس العمل، وصمتي، وحذائي، أنزع جواربي وأسير حافية القدمين، أُردد اغنية صغيرة أحبها لفيروز – أركض وأبتسم لنفسي، وأسدل شعري وأعدّ مائدة متواضعة نجلس أنا وأبي أشبه بعدوّين متربّصين أحدهما بالآخر، ويحاول أبي أن يكون ودوداً حين يلحظ صدودي، يحدّثني عن الجوّ وأخبار بناته وأبنائه، يحدّثني عن ارتفاع أسعار الفواكه واللحم، وسقوط طائرة على جبل في الإكوادور، والحروب المشتعلة هنا وهناك، ويحدّثني عن المجاعة في ولاية آسام الهندية فأجيبه بطريقتي: طريقة الكلمات المتقاطعة، أحدّثه عن الطيور وأزهار النرجس وثمار السفرجل، وأجنحة جبران المتكسِّرة، والمِهراجا راج بهانترا وأفياله المقدّسة المكسوّة بالجواهر تخترق طرق الولاية الجائعة..

وإذ تتقاطع العبارات، يمضي أحدنا في الاتِّجاه المعاكس للآخر لا يروق الأمر لأبي وهو المدرِّس القديم في الثانوية المركزية – المهيمن والمهاب، فيتجاهلني. ويتحدّث عن توقّعاته لمستقبل أحفاده من الصبيان ويهمل حفيداته من البنات، أنهض صامتة، أو أظلّ جالسة أمامه، وعندما ينتهي من كل أفكاره التي سمعتها مئات المرّات، يخمد البيت من جديد ويخيّل إليّ أنني أسمع نبضات قلبي الغاضب ودبيب العنكبوت على زجاج النافذة، وأسمع أنين الخشب في الأثاث والأبواب، أخاف، كيف لي أن أسمع هذه الأصوات المختلطة بصفير السكون.. بعد أن أنهي أعمالي تجتاحني الكآبة، وتتصاعد أحزاني، أضع رأسي

على وسادتي الكبيرة الصلبة التي أسمّيها وسادة الحجر، لأنها لا تبوح بشيء لأحد، تحفظ أسرار فمي ويدي وعيني وعندما يشتد وجيب قلبي في الليل وتجتاحني الذكريات والأفكار وتطاردني الكلمات التي سمعتها هذا النهار أو قبل سنوات كنت أنهض وأفتح النافذة فأسمع أنين شجرة السدر، كم يزرعون أشجار السدر في البيوت القديمة – السدرة – المسكونة بعصافير الليل وأرواح الأجداد. آه كم أكره أشجار السدر..

كم من مرّة طلبت من أبي أن نقطع هذه الشجرة ونقتلع جذورها فنتخلّص من هذه الظلمة المخيفة والأنين والأوراق المتساقطة. كان يقول لي:

– حذار يا ابنتي ويل لمن يقطع شجرة سدر، إنّ ذلك يجلب الأحزان والمصائب للبيت، فكلّما قطع الناس سدرة سمعوا صراخها الوحشي يصعد من أعماق جذعها وهي تهوي على الأرض، منذرة القاطعين باقتراب الكارثة.

ولم أكفّ عن تكرار طلبي، ولم يغيّر والدي موقفه برفض قطعها كنت أكره هذه السدرة لأنها تذكّرني بسدرة أخرى مثلها، ارتبطت بحادثة سبّبت لي جرحاً في النفس لم تشفه كل هذه السنوات..

قبل سبعة عشر عاماً وكنت في سنتي الاخيرة في الجامعة، سافر والدي منتدباً للعمل خارج البلاد، واصطحب معه أختي وأشقائي الثلاثة الذين كانوا لا يزالون في مراحل الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية وكان لا بدّ أن أجد حلّاً فإمّا أن أعيش في القسم الداخلي أو أذهب للعيش مع جدّتي وعمّي..

لاحظت استياء عمّي في البداية وتجنّبت مناقشة الأمر معه وعندما أعلنت لجدّتي عن مشاعري أنّبتني وقالت:

– لقد ورثت شكوك أمّك يا ابنتي. عمّك يحبك ويحب أباك وأنت ابنتنا وقد فرحنا، ملأت بيتنا بالحياة...

وعندما عاد عمّي من عمله وكان يعمل مدرِّباً رياضياً في أحد النوادي أخبرته جدّتي على سبيل المزاح بهواجسي.

ضحك عمّي واهتزّ جسده الضخم وقال: البنات يرين الحياة بشكل مختلف، عما نراه، من قال لك إنّك سبب استيائي؟ هناك كثير من المتاعب لديّ ولا بد أن تترك أثرها على مزاجي، ولا دخل لك في هذا، إنني معجب بك جداً يا ابنة أخي، فها أنت تملأين البيت جمالاً وشباباً..

نظرت إليه عندما بدأ يتناول طعامه، كان شَرِهاً جدّاً وكثير المرح، قال: ألا تشاركينني الطعام؟.. أم تراك ستجلسين مثل القطة الخائفة وتنظرين إليّ؟

ابتسمت بحياء وقلت له: تناولت غدائي في الكلية، توقف عن الطعام ونظر إليّ نظرة غريبة، التبس عليّ معناها: وسألني: وحدك؟

– كلا مع زميلاتي وزملائي في مطعم الكلية.

تأمّلني مليّاً ثم بدا زاهداً في الطعام، غادر المائدة وجلس في انتظار فنجان القهوة وأخذ يدخّن بعصبية واضحة.

كان عمّي من أولئك الرجال ذوي الوسامة التقليدية التي تروق للنساء السطحيات أو الجاهلات، أو الفتيات اللاتي يحلمن بأب وحبيب في شخص واحد، ولم أكن أراه جميلاً قط فأبي أجمل منه وأرقّ وأعمق...

ولكنّه على أيّ حال عمّي، وليس بمقدوري أن أختار عمّاً يوافق

مزاجي، قال: لديّ مفاجأة، لي صديق يعمل مخرجاً مسرحياً، وقد أرسل لي بطاقتين لحضور افتتاح مسرحيته الجديدة، هل يروق لك أن تشاهديها معي. وقفزت من مكاني: أحقاً؟ منذ زمن وأنا أريد الذهاب إلى المسرح، ولكن ليس بين أهلي من يحب المسارح.. قال:

في السابعة كوني مستعدة...

عندما ذهبنا إلى المسرح أجلسني عمي في المقعد الأخير في الصفوف الخلفية وقال: حتى لا يضايقك الآخرون. وحرص على أن يعزلني عن جو القاعة، كان يحدّثني ويحكي لي طرفاً وأحداثاً غريبة، وذات مرة كنت أتابع العرض وناداني فلم أسمعه، فأمسك بيدي وهمس باسمي:

قلت له: ألا تريد أن تشاهد المسرحية؟

قال: بلى.. أرأيت البطلة؟.. إنها خطيبة صديقي المخرج المسرحي أترينها جميلة.. ؟

– أجل إنّها جذّابة جداً!..

– أنت أجمل منها.. صدّقيني أنت أجمل من في هذه القاعة وضحكت: تقول هذا لأنّك عمّي، وتفخر بجمال ابنة أخيك فسعل بصوت خافت وحدّق في وجهي ثم قال تبدو المسرحية مملّة.. ما رأيك.. ؟

– بل إنّها ممتعة..

– أتريدين البقاء حتى نهايتها.. لابأس، سأبقى من أجلك..

عندما عدنا إلى البيت وطوال الطريق، كان عمّي يطري مزاياي وجمالي، ويعلن خوفه عليّ من أولئك الذين أسماهم – التافهين – الموجودين في كل مكان.. في الكلية والشارع والمسرح.. كنت أستمع

إليه لماماً، وأستعيد مشاهد المسرحية التي ظهرت فيها سومر القديمة وآلهتها وصراعات كهَنَتِها وكنت سعيدة أكثر لأن من كتب المسرحية كاتبة أحبّها قدّمت لنا الصراعات من وجهة نظر أنثوية، وقبل أن أنام وكنت قد ارتديت ملابس نومي وأسدلت شعري الطويل جداً الذي طالما زهوت به أمام زميلاتي - وحملت كتبي وهَمَمْتُ بدخول غرفتي فوجدته واقفاً أمامي وعيناه تومضان بنار غريبة، قلت لعلّني أتوهّم ما أراه.. وعندما حاذيته قال:

- ستنامين؟.. ألن تجلسي معنا؟..

- لديّ محاضرة يجب أن أستنسخها من دفتر زميلتي..

- حسناً، أتمنى لك ليلة سعيدة،

في المساء التالي عاد إلى البيت ثملاً تماماً وعندما كانت جدتي تهيّئ العشاء جاء إلى غرفتي، وأمسك بي وهمس بصوت مرتعش، هيا تعالي... نظرت إلى الحديقة مرتبكة فرأيت ظلمة شجرة السدر.

- إلى أين؟

- إليّ.. تعالي.. أكاد أجنّ.. من يستطيع مقاومة هذا الجمال؟..

دفعته عني فأمسك بي بقوة واقترب بوجهه منّي تفوح من فمه رائحة الخمر، صرخت: دعني... ابتعد عني.

قال: أدعك وقد أمسكت بك؟.. أنت مجنونة أو غبيّة أو ماكرة... ألا تفهمين؟..

دفعته بقوّة وقاومته وعندما سمعت جدّتي الضجّة وجاءت. ادّعَى أنّه وجدني سائرة في نومي، وأنّه أسندني ليوصلني إلى فراشي..

كنت أحبّ زميلاً لي تخرّج قبلي والتحق بخدمة الاحتياط في أولى

سنوات الحرب، واتفقنا على الزواج ريثما أتخرّج ويتقدّم إلى أهلي، عندما التقيته في إجازته وحكيت له ما جرى، جُنّ وطلب منّي أن أبحث عن سكن في القسم الداخلي أو نتزوّج في الحال... أوصلني إلى أوّل الشارع الذي يقع فيه بيت عمي.

كنت جالسة على الأريكة أشاهد برامج التلفزيون عندما أحسست بيد عمّي تمسك بشعري وصوت كالفحيح يهمس لي: لماذا تخشينني؟..

أحسست بالغثيان، فأمسكت معدتي بيدي. قلت له:

– لست أخشاك فأنت عمّي..

– إذاً، لماذا تصدّينني وتتهرّبين منّي؟

– أنتِ لا تفهمين شيئاً.. أنت ماكرة وسيئة.. أنتِ..

واقترب ثانية وأمسك بيدي فغرزت أسناني في قبضته وأدميتها فلوى شعري على يده ساحباً رأسي إلى الوراء محاولاً امتلاك وجهي، أغمضت عيني وبصقت عليه، صفعني فنهضت وأنا أصرخ ودخلت جدّتي وكان يحاول الإمساك بوجهي لكنّه غيّر وضع يده وصفعني ثانية فتحاشيت كفّه وانحنيت مخفية وجهي بين يدي قال: تعالي وانظري.. ابنة أخي، تدنّس شرف البيت الذي آواها، رأيتها مساء اليوم تعود مع شاب غريب، ماذا سيقول الناس عنا؟... يا للعار.. من هذا الشاب يا مدّعية العفّة؟ من هو؟.

صرخت جدّتي وضربت رأسها بيدها فدخلت غرفتي وأغلقتها ولم أنم حتى الصباح، كنت أسمع أنفاسه الكريهة وأرى عينيه الوحشيتين تحدِّقان بي من ثقب المفتاح، وعندما ذهب إلى عمله، خرجت متسلِّلة ومعي حقيبة ملابسي وشرحت الأمر لمسؤولة الأقسام الداخلية فأسكنتني في غرفة مع طالبات عربيات ولم أخرج قط إلى أي مكان

سوى الكلِّية، وانقطعت أخبار زميلي، وابتعد لسبب لا أعرفه سألت عنه زملاءنا فلم يبدُ أن أحداً يعرف عنه شيئاً، ثم تبيّن لي أنّ عمّي تصدّى له وضربه وهدَّده أنّه سيقتله إن لم يبتعد عني، وضاع ذلك الحب، ذهب رجل صباي الجميل، ضيّعته حطة عمي وجبن الحبيب، أنا جبنت أيضاً لأنني استسلمت للخوف، لم أذهب إليه وأتحدّى خوفي، كنت وحيدة ولا أحد يسندني وليست حكايتي بالحكاية العادية لأطلب معونة الصديقات أو الأقارب، لن يصدّقني أحد، سأُتَّهَم بالجنون، لن يصدّقني الناس قط.. بل سيصدّقون عمّي ودعوى حفاظه على سمعتي..

أريد أن أنسى هذه الحادثة، فأنشغل الآن عن أنين السدرة التي كانت تهيمن على غرفتي في بيت عمي، كم أكره أشجار السدر المظلمة..

أنظر الآن في المرآة، تخلّيت عن شعري الطويل وقصصته قَصّة صبيانية قصيرة جداً وتكاثرت التجاعيد حول الشفتين، وظهرت بقع داكنة وبثرات صغيرة وهالات قاتمة حول العينين، شفتاي جافتان ونظرتي حائرة..

هربت إلى غرفتي من ألمي القديم الذي أعادني إليه أنين السدرة... ودخلت: غرفة النساء الأبديات، غرفة الوحشة والدموع...

هل يعرف الناس أن لغرفة النساء الوحيدات رائحة خاصة لا تميّزها سوى النساء؟...

أشذاء خاصة، رائحة ملابس نظيفة مكوية، صابون معطّر ونشا، رائحة رذاذ مزيل العرق، رائحة وشائع الصوف الملونة، ورائحة الشمع وَسْبراي الشعر والحقائب الجلدية ذات البريق المعدني، وعبق عطور أنثوية جداً تحبّها الآنسات الكبيرات "فام" و "مس ديور" عطران من فواكه وسكّر وزهور ومسك وخشب صندل وتوابل، ورائحة مساحيق

الزينة القليلة على المنضدة الأنيقة، ورائحة طلاء الأظافر وأوراق الكتب القديمة وورنيش الخشب المدهون والرطوبة والزفرات والتنهدات وحموضة حبة أسبرين مفتّتة وزناخة كبسولة فيتامين ب كومبلكس التي تعالج الأعصاب المهدمة، تجتمع هذه الروائح في غيمة تظلّل الغرفة وعندما تهاجمني تعتصر قلبي بقوة، لكأن السنوات والأشياء والأحزان تمازجت كلّها واستحالت خلاصة كثيفة مركّزة من عطر ثقيل يثير مشاعر الوحشة ويجلد الجسد والروح بسوط الحرمان... سوط العذاب..

في غرفة النساء الوحيدات رائحة أنثوية خالصة احتفظت بنقائها الحزين الخاسر، لم تشبهها نفحة من رائحة الرجال القوية، وكلّما دخلت غرفتي هاجمتني الرائحة واستقرّت قبلي في الفراش، فأدخل في البكاء.. ويسمع أبي انتحابي، ويأتي إليّ، ينظر بكل عجزه وجبروته المزيّف، يضرب كفّاً بكف ويتساءل بصوت جريح:

– آه لو أعلم لماذا ترفضين كل الرجال.. ؟

– ولا ريب أنّه كان يستعيد صورة أمي ويسمع نشيجها المكبوت في تلك السنوات البعيدة، في ليالي أفوله المبكر، كانت أمي رقيقة وصامتة وجميلة مثل زهرة الربيع، لكنها كانت منكسرة الروح، وأبي يخشى الاقتراب منها مشفقاً من وهجها الساخن، كانت أمّي تشتعل بالصِّبا والجمال الحزين..

أسمعه يتضرع إليها: لا تعاقبيني بإعلان عذابك.

ولم يكن بوسع تلك المرأة الشبحية أن تعاقب أو تصرخ أو تشكو، كانت تتحمّل أحزانها في صمت مُكابر، وتجلس منكمشة، يرتعد جسدها، في نوبات أحزانها المدمّرة..

تمسك بإبرَتي الحياكة وتسرّب حزنها في غرزات الصوف المتتابعة المتساقطة من الإبرتين، تظلّ تنسج حتى الصباح، حتى ارتدَى كلّ شيء في البيت قطعة من نسيجها (كم كان حزنها كبيراً؟) ولم أكن أعلم أنها كانت تنسج رداء مصيرها، وجدناها ذات صباح غافية بهدوء على كرسيها وقد غطت ساقيها وحضنها قطعة نسيج طويلة جداً لم تكن بلوزة ولا صداراً ولا سترة، كانت شيئاً آخر صنعته المصادفة والمثابرة واللاوعي، عندما ناداها أخي، ماما استيقظي، بدا له أنّها لا تسمعه، ومدّ يده إليها فوجدها باردة، لم تستجب لِلَمسته، وقد تيبّست أصابعها الرقيقة على إبرتي النسيج والْتفّت عليهما مثل أسلاك الموت خيوط الصوف: ماتت بصمت حزين دون أن تنذرنا..

أسمع أبي ينهج وتضيق أنفاسه وتشتدّ آلام قدميه فيغالب الألم، أسمع أنينه، أسرع إليه بالمراهم واللّبَخات ونافثة الأوكسجين ومغلي زهرة العطاس...

بعد أن يهدأ، تنتظم أنفاسه، ثم يعلو غطيطه فأعود إلى فراشي وأغلق على نفسي قوقعة الليل، ألقي بجسدي على الفراش آه، أنا لا أملك سوى نفسي وجسدي المتعب المنسي في هذا العالم وغرفتي هي حرّيتي وحلمي...

إنتزعني من انسحاري بمذكرات الآنسة "م" رنين جرس الباب، أستطيع أن لا أذهب، ولكن الجرس عاود رنينه. السعادة ذات مذاقات مختلفة فوراء الباب شخص ما، امرأة أو رجل، ولن يأتي أحد إليّ إلّا إذا كان يحبّني وأحبّه، لا يقف على بابي أنصاف الغرباء، وأنصاف الأصدقاء: طردتهم. أسرعت نحو الباب، وابتسمت عائدة في وقفتها الراسخة، خُيّل إلي أنّها تُركت هنا منذ الأزل: تشبه عرّافات المصير بعينيها الواسعتين الرماديتين وشعرها الأسود وقامتها الطويلة

وحزنها الغامض.. ولولا أنّ ابتسامتها اتّسعت عندما رأتني لتراجعتُ فزعة من ثباتها الصخري.

– ضربت الجرس ثلاث مرات..

نظرت إليها كانت جميلة بثوبها الرمادي المرشوش بأوراق خضراء، وحزينة برائحة وحدتها:

– كنت أقرأ.. هيا ادخلي..

وأمسكت بذراعها وغمرتني رائحة أخرى وشت باضطرابها سارت إلى جانبي واضعة كفها على كتفي ثم همست:

– كم تبدين جميلة هذا اليوم؟.. ما الأمر؟

– ابتسمت، ألقت بكيس الفواكه وفطائر الكرواسان على منضدة المدخل، اشتريت هذا، ظننت أنك لم تخرجي هذا اليوم، أعرف أنّك في إجازة من عملك...

– خرجت، ونسيت شراء الخبز، أنظري أتيت بكل هذه الأحلام والشطحات والمبالغات والأساطير.. هذه الكتب.

– كتب جديدة.. ولكن أتنتظرين ضيوفاً؟..

– كنت أنتظرك أنت.. سيأتي هو أيضاً.. أنا قلقة، أشعر بالألم المُريع في رأسي.

– ألهذا دعوتني؟.. الألم نفسه الذي حدّثتني عنه؟.. لا تقلقي، شيء عابر..

– أجل أريدك أن تأتي، لأنّني أريدك أنت، ألم تشعري بهذا قط؟

– بلى.. لكنّني أتيت هذا اليوم لأنّني أيضا أحتاجك..

- أين وصلت بكما الأمور؟

أطرقت عائدة وشحب وجهها وقالت:

- إني خائفة:

- ممّ؟

- يريدون انتزاع طفلي منّي إذا تزوجته فهو غريب عن أسرتنا.

- لن يكون بوسعهم فعل ذلك..

- سيفعلون.. سيفعلون.

- ليس لديهم من هو جدير بحضانة ابنيك، العجوزان كلاهما يحتاجان إلى رعاية، وابنتهما ستتزوج..

- لا بأس.. سنناقش الأمر بكل احتمالاته القانونية مع صديقتي سلمى.. سنذهب إليها مساء الغد، احضري إليّ هنا في الساعة السادسة.

- أنا أرهقك بمشاكلي.. يستشهد زوجي وتمضي أربع سنوات وأجد من هو جدير بالارتباط بي فيقف الجميع ضد رغبتي إلّا أنت، والدتي لا رأي لها..

ولأجل أن أغيّر سياق الحديث قلت لها: عثرت اليوم على شيء ثمين.

- ما هو؟..

- مذكّرات كتبتها امرأة مجهولة اسمها الآنسة "م" وكنت منغمرة في قراءتها عندما أتيت.

- هل ستتاح لي قراءتها بعدئذ؟

- حتى أنتهي منها، لن أُطلِع أحداً عليها..

– أي أحد؟.. سألتني بمكر وهي تبتسم لي..

– أجل أي أحد !

– حتى هو؟

– هو ليس أي أحد..

– آه، معذرة كدت أنسى، وهكذا، أطرد خارج السور.

– بل أنت حامية سورنا وحبّنا، هل يُداخلك الشكّ في هذا؟

– كلا.. إنّما أخشى منحي هذه الأهمية..

– أنت شاهدة قصة مستحيلة، فهل ستكونين منصفة يا عائدة.

– وعرّابتكما.

واجتاحني الزهو.. بدت لي عائدة مدينة من الحنان والأمومة، إنّها لا تكبرني إلّا بضع سنوات ولكنّها ذات أمومة فيّاضة وحنان لا نظير له..

انحنت عليّ وقبّلتني، نفرت الدموع من عيني أنا التي لا أمّ ولا أب لي ولا أحد سوى هذا الرجل الذي سيأتي بعد قليل – لديّ الآن قلب كبير يتّسع لمحبّتي وسماع أسراري.. شحب وجه عائدة وتقلّصت ملامحها.

– ما بك...

– الصداع، أشعر بدوار وصداع.. أنا بحاجة إلى الراحة..

– أجائعة أنت؟

– كلا إنّها الهموم.

أعطيتها قرصاً للصداع وفنجان قهوة واستلقت عائدة في سريري..

وأمسكت بيدي ممتنة، معتذرة ومُحرجة وفي عينيها أحزان كثيفة تزيد لونهما الرمادي قتامة..

وعدت إلى الآنسة "م" وفتحت الدفتر وكانت قد تمدّدت في فراشها أيضاً وقرأت:

(وضعت جسدي على السرير وكأنّه شيء لا يخصّني، دثرته ودفّأته، وخرجت منه إلى أحلامي، اخترعت أحداثاً ووجوهاً وأصواتاً، وابتدعت مشاهد نابضة تختلج أمامي في عتمة الغرفة التي أسدلت ستائرها، غبت في حلم كبير، وتركت الجسد وحيداً داخل القوقعة الباردة.

أنا شغوفة بالحياة شغفاً لا حدود له ولكنّني سَئِمة وجبانة، منذ صباي كنت أستمتع بالأشياء الجميلة والحنان والبكاء واللّعب، ويلذّ لي أن أثير مشاعر الحب والغيرة والغضب لدى الآخرين.. لست شريرة، ولكنّي كنت أسبّب الإرباك لأبي باختلاق أكاذيب صغيرة عن أخطار تعرّضت لها.. وعندما يكتشف ألاعيبي الطائشة يؤنّبني، فألجأ إلى حضن أمي وأبكي، أشمّ رائحة الأم: الحرارة والنعومة والحزن وبقايا النوم..

عندما كبرت تجنبت الاستسلام لأي تعلّق بعد أن ضاع حبّي الأوّل الذي حطّمه عمّي، كنت أسرع بالتخلّي عن كلّ شيء أقع في هواه مخافة الفقد وخشية الخيبة التي عانيت منها سنوات طويلة، ولربما كنت مدفوعة بسبب آخر أن يأتي الإنسان الجدير بي ويجدني منغمرة في أمر سواه.. كنت أحطّم كلّ الأشياء في انتظار ذلك الذي سيجيء..

ولعلّ هذا كان أكبر حماقاتي، لأنني لو بقيت هكذا فسأحطّم نفسي في النهاية..

لست أدري كيف أتحدّث عن نفسي، إنهم عندما يصفون وجهي أحس كأنهم يتحدثون عن امرأة أخرى، جميلة، ومشرقة وغريبة عني، أراها مثلهم جميلة ومشرقة وبعيدة عني بمسافة عمر كامل، أجدني كئيبة وذابلة، ومن هنا كنت أحيط نفسي بدرجات اللون الأخضر أريد أن أطرد روح اليباس الشريرة – اليباس هو الشر القبيح في هذا العالم – وكنت أحدّق في الأرض عندما أسير في الطرقات، خشية أن يصطاد أحد الناس ومضة رغبة تلتمع في عيني.. وكنت أشغل نفسي عن وحدتي والأمل المستحيل، ببذل الحنان لمن حولي ممن لايعني اهتمامي بهم تعلّقاً عميقاً قد يؤدّي إلى تحطيم قلبي، أعود المرضى وأحقنهم بالإبر، أرعى طفل جارة مريضة، أرافق أخرى إلى مستشفى الولادة (حضرت ست ولادات) وأصحب البنات الناضجات إلى الأسواق وفي أيام الامتحانات أزودهن بالمراجع، وأساعدهن في كتابة البحوث، وأمنحهن خبرتي الناقصة – خبرتي النظرية، كان بعضهن يتعلّق بي، فأصبح أمينة أسرارهن.. وطالما سمعت من الناس أنني على غير عادة الأوانس الكبيرات – لم أكن ثرثارة، ولامتجهمة ولاشاكية من اضطهاد الحياة والآخرين لي.. كنت أبدو مقبلة على الحياة من دون أن أقاوم ما يجيء إليّ وما يفرض عليّ.

ولكنني يوماً بعد يوم بدأت أكره لقب الآنسة لا لشيء إلا لأنه صار وثيقة تعلن وحدتي وصكاً يضمن لي دون سواي – أن أتعرّض إلى قدرٍ من المغازلات السمجة وسوء الظن الذي لا يبخل به معظم الرجال وكثير من النساء..

قيل لي إن في صوتي نبرة حزن مثيرة – فعمدت إلى كبحها بالتزام الصمت، وأشارت إحدى صديقاتي إلى وهج أنثوي يشعّ من حركاتي

وفي كل هذا كنت محتفظة بتوازني، وخطواتي السريعة، وصفاء تفكيري ولم أتغيّر على مايبدو في أنظار الآخرين حتى اعتقد الذين عرفوني، أنني لم أكن في يوم من الأيام طفلة صغيرة، وإنما وجدت هكذا كبيرة مثل أي شيء أزلي في هذه المدينة، وسلّموا بالأمر:

لقد وجدوني في حالة مكتملة هكذا، مكتفية بذاتها، آنسة أبدية !

عرفتني النساء وهنّ صبايا ونساء متزوجات وأمهات، تغيّرت مصائرهن وأسماؤهن (أصبحت الولود منهن تكنّى باسم بكرها) وبقيت أنا أقاوم زحف الزمان وإعجاب الرجال المحيطين بي وتفاهاتهم، كنت أرى في معظمهم نذالة عمي، وجبن زميلي الذي هجرني..

صرت امرأة لا عمر لها ولكن كان لي من العمر كل سنوات مرارة وخصب وشقاء وصبوات النساء..

حماقتي الثانية الكبيرة: قراءة الكتب. قرأت في حياتي كتباً لا حصر لها، بخاصة وأنا أعمل في المكتبة، وعشت في عالم شبحي لا حجم له: سماكته مثل ورقة في كتاب، عالم لايمكن الإمساك به، أو الركون إليه لأنه عالم منسوج من كلمات وأوهام كبرى عن أحلام وآمال مستحيلة. كنت اقرأ قصص البطولة وحكايات الحب، أبحث عن شجعان لا يتراجعون عن موقف، وأعمام أسوياء .

بعد فترة انشغلت بتربية طيور الحب، هذه الببغاوات الاستوائية الصغيرة بألوان العاج والليمون والعشب والبحر، أناجيها وأطعمها وأعالج آثار الغيرة في أجسادها أغدق الحنان على الطيور الصغيرة العجماء فمن سيغدق الحنان علي؟ من سيهمس لي ويدفئني ويقلق إذ يطول انتظاره لي.. لا أحد – لا أحد...

وأمضيت سنواتي أنتظر شخصاً لا إسم له، وأذوب لهفة عليه ويخفق

قلبي إذا ابتدع له ملامح تروق لي، وأضفي عليه كل السجايا الكريمة في الرجال، وأحتفظ له بصفة ثابتة لا تتغير بتغير الملامح والأزمنة:

أن يكون شجاعاً وقادراً على حمايتي من ذئبية الرجال..

وأنا في الثامنة من عمري، وقد كنت طفلة صغيرة حقاً مثل كل البشر، مسّ جناح السحر عمري الساذج . فرأيت مشاهد من العالم القديم الذي لا يلمس ولا يرى إلّا بلمسة السحر.

خُيّل إليّ أنني أسمع أنين "عائدة" يأتي خافتاً من غرفتي، هذه المرأة المترفة، الناعمة، التي لن تشغل نفسها قط بالأفكار بل بالأشياء، إنها تتعامل مع المادة فحسب، والطبيعة كما تنتفع منها، الثياب الجميلة كما تروق لها، إنها تحب الاستعراض إلى حد ما، وترتدي ملابس وفق الموضة وتمضي أياماً طويلة في تغيير ديكور بيتها، كنت أقول لها: أنت تضيعين وقتك، ما جدوى أن تغيّري الستائر كل موسم، وتغيّري مواضع اللوحات وأواني الزهور وقطع الفخار والسجاد؟

تقول لي: إنه الفراغ، والملل، لو كان لدي ما أهتم به، آه.. لرأيت امرأة أخرى.. ولكنني عرفت أنها مهووسة بالأمنيات والتفجع وهي ترفل بالنعمة، ولكن أيّ نعمة؟ لعلّ خواء روحها وانشغالها بذاتها حسب صحبتها معي إلى أمسيات فنية، ومعارض رسم، وحفلات موسيقية، وكانت تضجر بسرعة، وكنت أواجه مواقف غريبة معها في تلك الأماكن التي نزورها، تبدو بين الناس متألّقة، طافحة بالجاذبية، تمارس المجاملات المفرطة، وتدير الرؤوس بأناقتها وسحر نظرتها الحالمة وتنتقل بسرعة مابين حالات الزهو والغضب والانفعال..

وتنبّهت للمجازفة التي قمت بها، كانت عائدة ضعيفة الحصانة أمّا الإغراء الكبير لكلمات الإعجاب فانزلقت في علاقات وخيبات، قلت إنها خطيئتي، ستواجه عائدة متاعب لم تتهيأ لها.

وفجأة افترقنا عندما تزوجت عائدة. ونسيت استعراضاتها الاجتماعية وأحبّت مثلما تحب معظم النساء بدون روية وبكل ما ادّخرت من حرمان وعنفوان وحمق..

إنّ الاختلافات كبيرة بين ما تدّعيه الآنسة "م" وبين ما كانت عليه صديقتي عائدة: أحببت الآنسة "م" وقلت لا بد أنها تعرفني والا لما أرسلت إليّ - اعترافاتها بتلك الطريقة الدرامية.

رنّ جرس الباب، هرعت إليه فدخل، متألّق الوجه، ومحرجاً بدرجة ما، ومحلِّقاً بكلماته القصار وابتسامته العذبة، أمسك بأطراف أصابعي برقّة أنثوية، (في الرجل جانبه الأنثوي الخفي) همس لي:

-متى نتزوج، أريد أن تنجبي لي ابنة تشبهك..

وابتسمت ولم أقل شيئاً..

قال بعد أن دخل وعرف بوجود عائدة النائمة في غرفتي: هل أنت محرجة من زيارتي؟.

- أنا مضطربة قليلاً.

- أكره المجاملات مع النساء الرقيقات الحساسات مثلها. إنّهن يسئن تفسير كل شيء وفي الحالتين تغضب المرأة عندما لانجيد التعامل معها..

- أيسيئك غضبها ؟..

لم يعلّق بشيء

قلت له: أتريد أن أعدّ لك العشاء؟.

- ما هذه الدفاتر؟..

استيقظت عائدة على جلبة خطانا وحديثنا،

قالت بصوت ناعس: سأعدّ لكما الشاي، أنا ذاهبة إلى المطبخ..

ابتسم ثانية وقال: امرأة رقيقة حقاً.

كنت أنظّم الدفاتر والأوراق، وأزيل رماد سكائري من المنافض، وأعدّل وضع الوسائد على الأريكة الواسعة وأفكّر: أيبحث حقاً عن الرقّة وحدها في النساء؟

ابتسمت للخاطرة وأحسست بالزهو، لم أتحقّق من طبيعة عبارته تلك، وهل كانت فيها رنّة سخرية أم لوعة أمنية، إن هذا لا يعنيني قط، لأنني أعرف من أين تنبع رقّة عائدة ونعومتها.. من خوائها... ونمطيتها..

كانت الغرفة مضاءة بنور خفيف، نور يشبه الانتظار النافد الصبر لشيء نتمنى أن لا يحدث، ولا يجيء..

جلست إلى جانبه، ستمضي السنوات، وسنشيخ نحن البشر المترددين، ويضيع كل شيء، ولكن ما هو الذي سيضيع؟ أهو الزمن الذي سيمضي مليئاً بشقائنا، يضحك منّا وقد رحل بدوننا.

نظرت إلى وجهه، بدأت أميّز بعض الغضون الصغيرة، ورأيت بعض شعرات بيضاء: إنها الخسائر كما تقول الآنسة "م" وإنها خارطة أفعالنا كما أراها: أتخيّله في ساعات الحزن التي يجلس فيها وحيداً، عابساً يحتسي شرابه وينتظر بزوغ الصباح، ساعات العمل والعبوس ويضع ومضات من الأمل. وقليل من المزاح.. وأقداح القهوة والشاي والزائرين ..

أحسست بحنان أمومي نحوه، وددت لو كان ابني، ... همست له

برغبتي، ابتسم وقبّل وجهي قبلة سريعة وقال: كنت أتوقع أمسية مختلفة...

– أدرك توقعاتك.. حسناً ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟

– ستكفّرين عن هذا التشابك في اللقاءات وعن اتلافك المتعمّد للقاء كنا ننتظره منذ أشهر طويلة...

أحضرت عائدة الشاي وفطائر الكرواسان الفوّاحة برائحة الخميرة وحرصت على أن تنظّم مائدة الشاي بطريقتها الاستعراضية التي نعرفها.

قالت: ضجرت من الفوضى التي تتعاملان بها مع الأشياء..

وضعت المفرش الكبير ووزّعت المفارش الصغيرة على صحون الحلوى الفارغة، وإلى جانب ابريق الشاي كان وعاء السكر ووعاء الحليب. ووقفت تخدمنا برشاقة ساقية ذوّاقة..

بعد أن سكبت لنا الشاي أخذت فنجانها وانزوت عند طرف الأريكة المقابلة لنا.

تحدّثنا عن العمل، وابنيها الصغيرين، وموقف أمها من مشروع زواجها، وعنت أهل زوجها الراحل.

قالت عائدة: لا طاقة لديّ على المقاومة، يهدّدونني بحرماني من رؤية الولدين إذا تزوجت. وأنا لا أستطيع التخلّي عنهما.

قال لها: قاومي.. لا تضيعي شبابك، سوف يكبر ابناك وتبقين وحيدة..

تحدّثت عن ولديها وأفاضت، تحدّثت بالدموع والتنهدات، قامت

وجلست وسكبت لنفسها قدح شاي آخر لم تشربه، وبدا أنها محرجة اعتذرت عن إزعاجنا بمشاكلها..

نهضت عائدة متجهة نحو الممر..

قلت له: سأطلب من صديقتي المحامية سلمى تبنّي قضيّتها..

سأل: والرجل ماموقف الرجل من كل مايجري؟..

– إنه يقف بعيداً في انتظار الحلول، يتركها وحدها تواجه التيار الغاضب والمتاعب في العمل ومع أسرة زوجها بسبب حبهما، ستخسر كل شيء أما هو فلن يمسّه أي سوء فكل السهام مصوّبة نحوها..

سمعت عائدة تحدّث أمها بالتليفون.. وبعد قليل عادت مرتبكة وعيناها محتقنتان... قالت بصوت مختنق:

– معذرة، يجب أن أذهب، ارتفعت حرارة الصغير، وأمي لا تجيد التصرّف حيال أي شيء..

عرضنا عليها أن نوصلها، رفضت بتهذيب جم، شكرته وقبّلتني والدموع تجول في عينيها الرماديتين، لدى الباب قلت لها:

– تماسكي، الامر مرهون بصلابتك، الحلول لاتأتيك من الخارج، إصنعي حاضرك بيديك، قد نعاونك نحن أو سوانا ولكن كل شيء مرهون بتصميمك..

– هذا أصعب ما في الحياة أن نقرر ونختار.. اهتمي بصحتك.. لا تهملي هذا الألم الشنيع الذي يعذّبك .

عندما عدت إليه كان واقفاً يحدّق بصورة "الغجري والأسد" لهنري روسو، ويتأمل الزهور البرية والعشب وقدمي الغجري الضخمتين وحركة الأسد، قال: عم كنتما تتهامسان؟

- حديث امرأة لامرأة.

- أثمّة سر؟ أراك مغمومة قليلاً؟

- كلا.. لاشيء يستحق الاهتمام.

- يامعبودتي، ياحبي تعرفين جيداً..

وقاطعته: في لحظات معيّنة، لا أعود أعرف شيئاً..

- لا تتلفي لقاءنا بكل هذه الوساوس والتوترات، مشاكل عائدة وحساسيتك ومخاوفك..

أحسست بالخوف على هذا الحب يثقب روحي، أخاف ضياع الزمن، أخاف ضياع حبي، نظرت إليه. همست له: أحبّك. بنبرة مشعّة قلتها، ونظر إليّ. رأيت فيه القوة التي تُبْعد عنّي الموت والرماد والحزن، غمرتني الغبطة: نحن في الفردوس..

ثم بعد قليل عاد إليّ خوفي: إنها الوحدة ذاتها والألم، سيذهب بعد قليل ويتلاشى الفجر الذي ابتدعه لأمسياتي، قلت من أجل أن أقاوم هذا الإحساس بالخوف والوحدة والألم:

- لن تصدّق، عثرت على هذه الدفاتر، مذكرات حقيقية لامرأة مجهولة.

- أصدّق، أنت تعثرين على أشياء رائعة (ونظرت إليه)

- يخيّل إليّ أنّني أعرف هذه الآنسة.

رفع يديه وصاح معترضاً: حذار لاتقحمي علينا أوانس جديدات، لديك منهن ما يكفي لتدمير لقاءاتنا وتزويدك بالأوهام، وإفساد وقتك بالثرثرات..

كم كان قاسياً، لكنني ضحكت رغم ذلك، وبغتة وقف وحمل سترته، كأنه قرّر الرحيل لأمر تذكّره أخيراً.

– أنت محرجة، لا أريد أن يأتي أحد فيرانا وحدنا.

– لست محرجة، ولا أحد سيأتي.

نظرت إليه: هذا هو الفردوس الذي صنعناه: أن نفترق ونتألم، ونخاف، ونحلم، وننتظر ما لايجيء.. ونموت، كلا.. إنّنا نحيا في انتظار أن نهزم موتنا الآخر، هل هزمناه؟.. كل شيء نسبي، كلا هناك ثوابت، لقد هزمنا كل صغائرنا وجبننا واعتياديتنا، أصبحنا بالمكابدة جميلين وبنينا حياتنا رغم كل شيء بتراكم مباهجنا ومخاوفنا وأحزاننا. اقترب مني، وضع يديه على كتفي، وأبعد شعري عن جبيني مزيحاً إيّاه إلى الوراء وابتسم وهو ينظر إلى الصورة التي صنعها مني واكتشفها، قال: أي وجه أرى.. هل رأيت نفسك مثلما أراها؟

همس: كم أحبك أنت – لا تخذليني.. لا تخذليني.. أحبك.

– لن أخذلك

وانتزعت نفسي من اختلاجة صدقي وهزة انفعالي قلت له: ألن تبقى؟.. تعال سنقرأ أسرار الآنسة "م" معاً..

قال: سأذهب.. اقرأيها وحدك، ما جدوى أن نبقى ونحن محكومان بالافتراق بعد قليل وأنت مصرّة على تأجيل ارتباطنا لسبب لاأفهمه ..

لبثت واقفة في مكاني، تحرّك نحو الباب، قال: ألا تودّعينني؟

كان الزمان يقهرنا.. يصيبنا بوباء الخوف من الآتي والتلف يسحقنا و يميتنا، تغلّبت على ثقل لحظتنا المبهمة، وأسرعت إليه، عانقته، فعاد وجلس إلى جانبي، بكيت في صمت، أردنا أن نقول أشياء كثيرة، مددت يدي ألمس جبينه في حركة ورعة.

كانت غلالة من الأسى تنسدل على ملامحه، ابتسم لكن ابتسامته كانت تعبيراً عن الألم أكثر مما كانت ابتسامة للابتسام، فعرفت أنّه لم يكن معي..

انفرد بنفسه ونسيني متفكراً بما ستؤول إليه حياتنا التي اكتشفناها بعد سنوات الحب، كانت يدانا متعانقتين، بهدوء وطفولة ورضا، كانت أصابعنا أسعد منا، راضية مكتفية ولا تسأل عما سيأتي، في نهايات أصابعنا، كان يتكثف إيماننا بحبنا وعلاقتنا، كان الحب يتراءى منفصلاً عن باقي جسدينا في أصابعنا وراحة يدينا: كنا محايدين نتفرّج على بهجة يدينا العاقلتين، وحدهما كانتا تدخلان السعادة، بينما نستسلم نحن إلى الحزن، وحدهما تتحدثان ونحن صامتان، لم أعد أحسّ بهما، يدانا صارتا مخلوقاً آخر يقف بيننا مندمجاً ومشعاً ومتجاوزاً الزمان وقد ابتعدتا عنا، خيّل إليّ أنّنا لو متنا اللحظة لبقيت هاتان اليدان تنبضان كأنما تستمدان الحياة من قوّة سرية تأتي من أعماق الكون، إنهما حبنا الكبير الجميل.. وفجأة ارتجفت يدي تحت يده، وعادت شيئاً لا استقلال له، عادت إلي، وتراجعت يده إليه ببطء كأنما تنسحب من حلم وتستيقظ..

قال: مهما بقيت سيتحتم عليّ أن أذهب.

– متى ستبقى من دون أن تفكّر بالرحيل؟

– ذات يوم، عندما تقولين نعم.. سأبقى..

- فتحت دفتر الآنسة "م" وتعرّفت على لمسة السحر وقرأت:

"رأيت على أثرها العالم القديم الذي لا يستحضر إلا بمعجزة أو لمسة سحرية، العالم الذي استحال صوراً صغيرة ملونة، أجساداً وأشجاراً، وسماوات وأراض وجبالاً، وحيوانات وعواصف وشموساً مصغّرة، مضغوطة في حجوم دقيقة داخل "صندوق الدنيا" المزيّن بحبال الحرير الملوّنة ومسامير النحاس.

كنت أنظر عبر العدسة الصغيرة فأرى وجهاً ضارعاً تضيئه أبوّة ورعة، وجه نبي شجاع، ويرتفع صوت الرجل الطويل الذي يحرّك الصور، ينهمر صوته من الوجه الذي تتوسّط جبينه شامة سوداء صرنا نعرفه بها:

يقول لنا: هذا هو النبي ابراهيم الخليل، يضحي بولده لوجه الله بعد أن تم له بناء حائط الكعبة.

أمام الصندوق جلسنا، ثلاث بنات صغيرات، أنا وابنة عمتي وروزة ابنة سمحة اليهودية، عندما نطق الرجل باسم النبي إبراهيم مدّت روزه رأسها وراء ظهر ابنة عمتي واقتربت مني تفوح من ثيابها وأنفاسها رائحة زيت الشيرج، همست لي:

- انظري: هذا نبيّنا، انظري.

قلت لها هو نبيّنا، قرأت ذلك في كتاب الدين،

- هو نبيّنا.. هكذا قال عمي شاؤول.. أنت لا تعرفين أي شيء..

وتنبّه الرجل للمشاجرة الخفية فحسم الأمر بيننا:

- هذا نبي الناس أجمعين..

- (وكذلك قال أبي حين حكيت الأمر)

واقترب وجه النبي ابراهيم مني، بلحيته الكثّة وشعره المرسل وقد التمع في يده نصل السكين الذي لامس حدّة عنق صبي جميل تتدلّى خصل شعره الذهبي لولبة وبرّاقة، وقد تضرّج خدّاه بفعل الخوف فتألقا.. انتقل الفزع إليّ من عيني الصبي المرتعب الذي سيذبحه أبوه قرباناً، ارتجفت وأغمضت عينيّ وددت لو أهرب، ولكن فضولي غلبني، صرخت صرخة صغيرة، وضع صاحب الصندوق يده على كتفي وقال:

صمتاً، اسمعو الآن، ألا تسمعون؟..

وتنبّهنا رغم خوفنا، ألا تسمعون حفيف أجنحة الملاك جبرائيل وهو يهبط من السماء انصتوا هيا. سمعت الحفيف مثل ريح بعيدة وظهر الملاك ممسكاً بقرني الكبش، ذهلنا، ولم نعد نسمع حديث الرجل الذي صار صوته يتردد مثل الصدى وراءنا.. لكنني ميّزته آخر الأمر يرتّل "وفديناه بكبش سمين.. ".

وقبل أن نفيق من دهشتنا ظهر عنترة، ووراءه مائة ناقة بيضاء من نوق العراق. كما أعلن الرجل - رافعاً سيفه الدامي الذي صرع أشجع الفرسان، وسمعنا رغاء الإبل وصليل السيوف، ثم ظهرت سفينة ذات أشرعة في بحر هائج تكتسحه العواصف، سمعنا الريح وهدير الموج، وتشقق ألواح المركب وصراخ الغرقى، ورأينا السندباد يتشبث بلوح خشب وينجو، وما إن اختفى حتى ظهرت صورة أبي زيد الهلالي، الشجاع الرابع وقبل أن يعلّق الرجل بشيء أسدل الستارة الصغيرة المزركشة على العدسات الثلاث وقال:

- دور جديد، من أراد رؤية البطل الهمام أبي زيد الهلالي عليه أن يدفع النقود من جديد.

ودفعنا النقود أنا وابنة عمتي بينما غادرت روز ابنة سمحة اليهودية مسرعة.

لم نعرف في الطفولة سوى حكايات رجال شجعان، نبي شجاع يمتحن إيمانه بأبوّته، وعاشق شجاع يمتحن حبّه بمطالب خارقة وفارس شجاع يذود عن القبيلة، ومغامر شجاع يكتشف نفسه في أهوال العواصف وفي مجاهل الغابات والكهوف وظلمات الجزر العجيبة وفي نعيم النساء الفاتنات اللواتي يقطفونهن من أشجار بلاد الواق واق..

امتلأ رأسي ببخار الشجاعة، كنت مهووسة بالأبطال، ثم شيئاً فشيئاً خلال درب المعرفة اعتنقت فكرة مفادها أن الشجاعة هي سمة الإنسان الفائق، وقررت أن انتظر الشجاع الخامس الذي سيأتي في يوم ما من نافذة صندوق دنياي..

كنت أحاصر أبي قاصدة إحياء زهوه القديم بنفسه وأفعاله

يقال إنك كنت شجاعاً كبيراً فيما مضى، فماذا فعلت يا أبي؟..

ينظر إلي ساهماً ثم يسألني:

من قال لك هذا؟

أمي..

فيختلج وجهه ويعبره ألق يضيء عينيه ويقول:

ذلك زمان بعيد مضى ونسيه الناس.

بودّي لو حكيت لي شيئاً..

أكره اجترار الذكريات لكل زمان أحداثه وأحاديثه وأشياؤه ورجاله

أتصرّ على الصمت؟

بل لا أريد أن أنبش قبور الماضي، لأنني لن أجد سوى اللوعة والغصة. وربما الندم، إنّ ذكريات الألم والفرح تهزّني وأنا كما ترين لا أقوى على مواجهة الأعاصير.. بإيجاز أقول لك: حصلت على سعادتي ثم فقدتها، هذه هي الحياة حياتي وحياة الآخرين..

هل يجب أن نضيع ما نحصل عليه؟

لا شيء يدوم إلى الأبد، لا الشجاعة ولا السعادة.

فإذا حدث أن جاءت السعادة قبل الحزن، فقد يحدث أن يأتي الحزن قبلها، ثم يعقبها، إنهما يتبادلان المواقع على الدوام ولا يستقرّان قط..

الآن أنا لا أشعر بأيّ غصة، ففي الشيخوخة تتساوى الأمور، ولا يتشبث الإنسان إلا بالنبضة التي تبقيه حياً.. في عمرك يختلف الأمر، الحزن يكون طاغياً إذا جاء والسعادة غامرة والشجاعة لا حدود لها – لأن الأمل يحرّك كل شيء.. هنا يكمن الاختلاف".

عندما حدّثني استضاء وجهه بذكرى شجاعته وسعادته الغابرة، فصار جميلاً على نحو مذهل، ولعلّه عمد إلى تضليلي حين ادعى عدم رغبته في اجترار الذكريات.

أيقنت أن الشجاعة بل حتى ذكراها – تمنح الرجل فيضاً من الجلال والجمال الرفيع..

أثار حديث أبي شوقي للرجل المجهول المنتظر، وطرأت علي فكرة: من أين سيأتي هذا الرجل؟ كيف سأجيء به إن سكنتني العاصفة؟

.. هل سأخلقه من أحد أضلعي فأكون حواء جديدة تخلق آدمها المنشود متى شاءت؟.. يالها من فكرة هائلة، إنني أحسّه قريباً مني، إلا أنّني لا أراه..

ستصير حياتي فردوساً حقيقياً إذا وصل، وسأحطّم عند قدميه مقتنياتي القديمة كلها، الأشياء الجميلة التي أمضيت عمري في جمعها.. الجمادات العقيمة.. وحده يكفيني، الإنسان أجمل ما في الدنيا..

تصاعدت المرارة إلى فمي، وخذلني التخيّل، سأترك قلمي قليلاً، وجه جميل يلوح لي ودفء إنساني يقترب مني... أمدّ يدي، فلا أجد غير البرد ونعومة الأغطية.. ألمس جسدي المنتظر، يغمرني تيار من رحيق حلو، يختلط بأبخرة النعاس.. أذهب إلى النوم.. "

في اليوم التالي: كانت عبارة واحدة تدور في البيت.

كل النساء لهن بيوت.

قلت لأبي: هذا بيتي.

لن يدوم إلى الأبد.

أنحن دائمون إلى الأبد؟

لكل النساء السويات أزواج وأبناء ووعود ومستقبل،

قال أبي، عندما أموت ستضيعين من بعدي.

دخلت غرفتي غيّرت ملابسي، ثم غسلت وجهي ونظفت أسناني اكتشفت ضرساً تالفاً: بدأت أتهدّم.

صاح أبي، أحكمي إغلاق النوافذ والستائر.

أختنق في جو البيت الآسن.

وضعت قرب سريره نافثة الأوكسجين وقدح الماء. كل شيء في البيت ثابت وراسخ: المقاعد والأسرّة والمناضد والصور والخزائن، كل شيء متخذ له موضعاً في الفراغ، كنت وحدي أتجوّل في الفراغ، عليّ أن

أعدّ وليمة للعشاء ستحضر أختي وزوجها وعليّ أن أبدو كيّسة مهذبة وربة بيت من طراز محترم، أن أرحّب بهما..

قالت أختي: أنت شاحبة، عيناك غائرتان، لماذا ترهقين نفسك كثيراً في العمل؟

لم أقل شيئاً، كان زوجها يحادث أبي في جدية كاملة، وبين لحظة وأخرى يرمقني بنظرة فيها منّة وكبرياء...

قال أبي بأسلوب اعتدناه منه: لماذا لا تحدثها، هي أختك أيضاً، فلماذا لا تعرض الأمر عليها مباشرة؟

قال زوج أختي وهو ينظر إليّ: سترفض كما كانت ترفض كل مرّة.

قال أبي: هناك رجل يريد أن يزورنا ليخطبك..

فحسمت الأمر بكلمة واحدة: لا أريد..

وعندما غادرا غاضبين، التزم أبي الصمت..

وخرجت تجولت في الشوارع اشتريت لذلك الذي لم يأت بعد مجموعة من القمصان وربطات العنق والعطور الرجالية، وملأت جانباً من خزانتي بأشيائه العزيزة.. وجاورت ثيابه ثيابي..

قال أبي: إنك تذبلين بسرعة..

لحظ الآخرون تغيّري، أنا التي استعصيت على الزمان سنوات طويلة، لم يدر بخلد أحد أن الآنسة الكبيرة تحمل في صدرها تلك الطفلة الحالمة التي ترى العالم عبر صندوق صغير، ترى الدنيا من خلال فتحة بحجم راحة اليد، والعالم يقدّم لها مثلما يريد الآخرون، صاحب الصندوق يمثّل المشاهد بصوته ويصنعها بصور مرتبة معدّة سلفاً، معجزات وخرافات وأساطير، ويمنح أشياءه أبعاداً مبالغاً فيها، وأمضي في

اللعبة دون أن أرفضها، أرى العالم مضغوطاً في صورة أو كتاب، وأدفع الثمن كل مرة... وفي كل مرة ينتحل المعلّق صوت صليل السيوف ورغاء الإبل وهدير الموج وزئير الوحوش وحفيف الأجنحة، فتستمتع الطفلة المخبوءة في جسدي بوهمها، وتدفعني لإلغاء زمني بالتفرج على ذلك الماضي بينما أنا منشغلة بانتظار الرجل – المستقبل.

أحسست أن لا وجود لي في الحاضر إلا من خلال جسدي وهو معطل وملغى، وإذاً لا وجود لي في الحاضر: روحي ومخيّلتي تمضيان في اتجاهين مختلفين، وأنا – الجسد – العربة – التي ربط إليها جوادان جامحان كل واحد يمضي عكس الآخر.. الجوادان يصهلان ويصارع أحدهما قوة الجذب لدى الآخر، والعربة، واقفة: لا أحد يأخذها نحو الماضي إلى الموت، أو نحو المستقبل إلى الحب...

انتهت الصفحة الأخيرة من الدفتر الثاني.

ذهبت إلى غرفتي، بحثت عن رائحتي فيها، لم تكن لها رائحة غرفة الآنسة "م" بل ربما كانت مثلها ولكني لطول اعتيادي لها لا ألحظها، ضربني الألم الصاعق في رأسي، هذا الألم المتناوب الذي لا يغادر رأسي قط..

قالت لي الطبيبة بعد إجراء الفحوص، حالة غريبة، كل الفحوص سلبية، أخشى ان يكون ثمة خطر..

ضحكت وقلت لها: لماذا الخوف؟.. الخطر ماثل في كل شيء، أنا لا أخاف المرض قط..

–لا تزالين شابة..

–لكنني أعيش زمني دون خوف...

كانت أفلام الأشعة التي صوّروها لي مثبتة على شاشة مضاءة: ابتعد الطبيبان وتحدّثا بالإنجليزية.. فهمت أنّها يرتابان في وجود ورم صغير.. لكنهما لم يفصحا.. لم أقل لأحد قط.. لم أقل له إنني أشكو من هذا الألم القاتل كل ليلة.. كنت أقتحم الحياة بالقوة والشغف نفسه لكنني أخفيت عنه الأمر.. منذ أشهر وأنا صريعة هذا الألم: يريد أن نتزوج لأنجب له ابنة تشبهني.. كنت أحاول نسيان ألمي بالانغمار في حبه، كيف سيواجه الفاجعة لوحده؟.. أخشى أن يدمّره الحزن عليّ... أحبه ولا أريد أن أموت لئلّا أخذله..

لن أخذلك قط.. لن أخذلك..

طمأنني أن لا عوامل وراثية مساعدة تشير إلى وجود ورم، لم يصب أحد في أسْرَتنا منذ أجيال بمرض من هذا القبيل لعلّ الطبيب أخطأ، لعلّ ألمي أخطأ.. إنني لا أحسّ بالموت يقترب، أنا أمسك بالحياة، ومشاعري، مشاعر العاشقة لا تخطئ.. لاتخطئ قط..

فتحت الدفتر الآخر:

وجدت عنواناً داخلياً للمذكّرات:

"إنّها الحرب"

وهكذا يردّد أبي.. (إنّها الحرب، إنّها الحرب).

أخذوا الرجال تباعاً إليها، أخذوا الأخوة وأبناء الأعمام وأزواج الشقيقات، وأبناء الجيران الذين أصبحوا رجالاً وفاجأونا، وشرعت تفترسهم واحداً بعد الآخر وتبدّد حياتنا..

إنّها الحرب...

شعرت أنني ألقيت مباشرة في حركة دوران الزمن – حركة الطرد المركزي، ألقيت في مجال واسع محتدم، لم يعد العالم يرى من خلال فتحة صغيرة بحجم راحة اليد ولا هو بانوراما اتساعها ثلاثمائة وستون درجة لايمكن أن تلمّ العين بكل تفاصيلها من نظرة واحدة، العالم واقع يمتد بين نقطتين، متضادتين، ومتصادمتين: الموت والحياة، والبدائية والحضارة، القتل والنجاة وبين هاتين النقطتين – تعلّمت الآن – تقع كل القيم والمحبات والأحلام والمشاريع وتتلوّن بإحداها بنسبة اقترابها منها..

قال أبي بعد أن غادر صمته السلبي القديم إنها الحرب التي تفترس كل شيء..

كنت أستمع إلى هذه العبارة التي يردّدها والدي كأنما أستمع إلى أغنية تؤدّى بتنويعات مختلفة، فهي مرّة توحي بالحزن ومرّة بالترقب والغضب، ومرّة باصطناع الصبر، أو بإثارة الذكريات الموجعة.

أصبحت آنسة أخرى، أبدية، لكنها ذات هموم مختلفة، هموم زمنها لا هموم الماضي، وشيئاً فشيئاً، صرت مسؤولة تقريباً عن مهام عائلية متشعِّبة بسبب الحرب، أخذت أذرع بسيارتي الصغيرة القديمة شوارع بغداد متنقّلة بين أحيائها الحديثة وجسورها وضواحيها أتفقّد بيوت الأخوة، وأبناء العم والأخوات، أشتري للزوجات والصغار احتياجاتهم وأزور من عاد في إجازة من جبهات الموت ... كنت أكتشف كل يوم أشياء مختلفة في الحياة والناس: لقد كبرت ووعيت أوجاع زمننا.

أقتحم بعد الظهر زقاقاً عتيقاً في منطقة الشواكة في الكرخ، باحثة عن بائع سمك عجوز أعرفه، أريد شراء شبوط طازج لأخي العائد من

جبهة الموت، سرت وسط الزقاق القديم حيث تتسرب المياه الموحلة القديمة برائحتها الثقيلة توقفت عربات باعة السمك والجبن الأبيض والخضار ووراءها دكاكين تبيع أدوات الصيد، شباكاً وطوافات وشصوصاً وحبالاً، كانت الأسماك تعلن عن وجودها برائحتها القوية وعيونها اللامعة وقشورها القزحية، أختار شبوطاً تغريني فيه حمرة الغلاصم، أضغط بإصبعي على اللحم، أتأكد من تماسكه، أشمّه.

يقول العجوز: عيب عمو، أنا ما أغش زبائني ..

وأعتذر بود: أريد أن أجرِّب شطارتي..

يضحك فأحمل السمكة وأكياس الخضار وأمضي. أنعطف نحو اليمين أرى شيخاً يقتعد كرسياً صغيراً، أمام باب خشبي، مثقل بمسامير النحاس والأهله وهو يحدّق في امتداد الطريق، ولا يتوقف نظره الحسير على شيء.. أجتازه ثم ألتفت وأتوقّف وأعود أنظر إليه، يخيّل إليّ أنّني رأيت وجه الرجل العتيق، نظر إليّ مستفهماً، ثم انصرف عني، ونظرت إلى مساحة الارض المهجورة المجاورة للبيت حيث تكدّس هناك حطام أشياء لا تحصى، سرير حديدي صدئ نفرت لوالبه، هيكل عربة هجرتها خيولها، منفاخ حدّاد ممزق، دولاب غزل قديم، برميل متآكل، صندوق متوازي المستطيلات انحرفت زواياه عندما تخلّعت مساميره عند الزوايا، وثلاث فتحات فاغرة مؤطرة بالبرونز الصدئ، عدت أنظر إلى الرجل فعثرت على الشامة السوداء الذابلة تحت طرف كوفيته.

كان صندوق الدنيا الصغير ملقى بين النفايات والركام وفتحاته التي تشبه محاجر عمياء في جمجمة وحش بائد تعلن عن انهيار سحرها، وقد تساقطت العدسات وماتت الصور الساحرة والقصص العجيبة والحكايا، وماتت أسطورة الشجعان المعدودين..

تجاوزت المكان ووصلت سيارتي، خنقتني غصة، كان ذلك صندوق أحلامي ملقى في العراء وقد غربت عنه قوّته وسحر أوهامه القديمة..

عندما عدت إلى البيت بعد التاسعة وأنا أحمل حكايات أبناء أخي، وهموم أخي، ألقيت المعطف والحقيبة على الفراش فأحسست بشيء صغير يتسلّل من روحي، ويترك فيها فسحة من فراغ مضيء..

أضجرني رنين التليفون المتواصل، أرفعه فأسمع صوت رجل وبالأحرى صوت شاب يسأل عن اسم محدّد ثم يعتذر إذ أخبره أنه مخطئ.

.. يصمت برهة ثم يعاود من جديد، مرّات كثيرة طوال أشهر حدث هذا وتكرر، كان عندما يسمع صوتي يصمت قليلاً وأسمع أنفاسه المتسارعة ثم أسمعه يغلق الخط بهدوء..

عندما رأيت الصندوق المحطم، صندوق الدنيا القديمة اعتراني إحساس بالحزن.

قلت: لا بدّ من تحطيم أوهامنا.. وأيقنت لسبب أجهله – أن حلمي قريب التحقق.. تغيّرت أشياء كثيرة، أنا أول من تغيّر بدأت أدخل ممر الشيخوخة الواسع الذي يتسع لجميع البشر، ومعي بدأ يشيخ البيت، ويذبل أثاثه ورونقه القديم، مقابض النوافذ صدئت، والأبواب ذهب بريقها، والأشجار كبرت ووجوه الجارات تغضنت وابيضت شعورهن، ومرّت آلاف الأيام والليالي وبرئت إلى حد ما من سطوة الكتب، ودخلت الحياة نفسها ووقفت أنتظر ذلك المجهول وأرتعش لهفة إليه، ولا أعرف ما هو ومن يكون..

قال أبي: المعارك الوحشية تأكل أبناءنا.

قلت: إنها الحرب، وما أدراك ماالحرب.. ألست أنت من يردّد هذا كل حين؟..

تنفس عميقاً ونظر بشرود عبر النافذة وقال:

أجل يا ابنتي حقاً، إنها الحرب هذا الوحش النهم الذي لايشبع من الجثث ولايرتوي من الدماء.

واكتشفت في صوته مزيجاً من الأسى ومحاولة الاصطبار، كان يتابع نشرات الأخبار في كلّ الإذاعات، ويتجول في الدنيا بمؤشر المذياع..

قال: إنها تلتهم الزمن بشراهة الوحوش..

قلت وبطريقة الكلمات المتقاطعة معارضة حزنه:

وتمتحنهم، أيّ تجربة أقسى وأبلغ وأشد منها..

تقرّبهم من الحياة وأنفسهم إذ تشهر الموت في وجوههم ..

قال معترضاً: ليس كلّهم، محبو الحياة فحسب إنها الحرب يا ابنتي...

– أعلم يا أبي نحن نفهمها بصورة مختلفة، فلا تبالغ بعد اليوم بما تحمله من تصورات قديمة وتجربة مختلفة... تلك حروب أخرى، وأزمنة أخرى وبشر مختلفون.. ونحن لسنا مثلك وإن كنا أبناءك، الحرب في هذا الزمان شيء مختلف..

يبقى اسمها الحرب أيمكن أن تسميها باسم آخر؟

الاسم ليس كل شيء يا أبي. هناك ما يعقبها من خراب النفوس والبلاد..

إنّها الحرب...

ورن جرس التليفون مرة أخرى، قلت:

كلا هذه ليست دار محمود، لا بأس، لا بأس..

ذهبت لأطعم طيوري، وضعت الماء وحبوب الدخن اللامعة في إناء الطيور وغسلت إناء الماء ووضعت ماء جديداً، بحثت عن الطائر الأبيض الذي ماتت أنثاه منذ يومين، كان بادي الحزن والشقاء، قرّبته من وجهي ولامس ريشه الناعم وجنتي، كان الريش دافئاً ينفث رائحة حية قوية، رائحة مخلوق حزين، رائحة الألم والوحدة السامة..

التصق الطائر بي وضع منقاره المرجاني على شفتي، ابتسمت لنقرته الرقيقة، نقر ثانية على أسناني تسرّب شيء غريب من مرجان منقاره البرتقالي إلى شفتي، شيء يشبه ما يفعله ملقط طبيب الأسنان حين يطرق به على السن التالف ويسأل: أيؤلمك، هنا.. أم هنا؟..

لكن الطائر لم يسأل ،. كان صامتاً وصائماً وقريباً من النهاية. همست له، لاتخش الوحدة، ألا تراني.. إنني أعيش من دون حب، من دون رجل، من دون قبلات.. ألا تراني؟..

أحبّك يا طائري الصغير الجميل، كان لا يزال يضع رأسه المستدير على خدّي، نقر ثانية على شفتي، قلت: أحبّك، غنّ لي... داعبت ريشه اللامع ووضعته بين عنقي ووجهي فهدأ الطائر في الدفء الناعم واستراح على موضع النبض في عنقي. وضعت إصبعي في القدح وقطرت الماء على فمه، نفض قطرات الماء وأصرّ على الظمأ... ماذا بوسعي أن أفعل لك؟ تعال اغرز منقارك في لحمي ومخالبك الصغيرة في ذراعي إن كان هذا يشفيك من فجيعة القلب.. أيها الأحمق أمصمّم على الموت؟ أيها النبيل أيساوي الموت عندك الحياة؟. أهذه حكمة الطير أم منطق الحب؟..

قبّلته وأعدته إلى القفص وقد ازدادت عيناه ذبولاً، ولاح شبح الموت فيهما.

قلت لأبي لن أذهب هذا اليوم إلى أحد منهم.. أنا متعبة، فليأتوا هم: بناتك وأحفادك وأبناء أخوتك.

ذلك بعض واجبنا فلا تمنيّ عليهم.. أنت قوية ولن يدوم تعبك.. أفرحي تلك النفوس التي تحبّك..

لن أذهب..

لا بأس، لديك واجب آخر، طلبت جارتنا ام فؤاد أن تعطي ابنها فؤاد حقنة مهدئة هذا المساء لأن الممرض لن يأتي...

متى تحدثت إليك؟

في الصباح، عندما كنت في المكتبة، نسيت أن أخبرك قبل هذا.. قالت إنه يرفض الخروج من البيت منذ أن غادر المستشفى العسكري بعد أن أصيبت عيناه في المعارك الضارية شهران وهو لا يخرج، وطبيبه المعالج يزوره في البيت، هناك أمل كبير باستعادته البصر.

سيتغيّر، هذا وضع طبيعي، لم يعتد مواجهة الحياة بصيغة فاقد للبصر، لكنني واثقة من تغيّره، مادام هناك أمل بعودة بصره إليه.. هل رأيته قريباً.

أجل هناك أمل كبير يقول الطبيب: الحالة نصفها يعود إلى اضطراب عصبي وعلاجه جار..

أزوره بين فترة وأخرى عندما يكون والده موجوداً، وأنت في المكتبة، إنه يتحدث ويمزح، روحه مرحة ومعنوياته متماسكة ولا يشعر المقابل

أنّه يعاني من شيء بل إنّه معتدّ بنفسه وبادي الشجاعة، وكثير الأمل.. لم أجده منكسراً كالآخرين، إنه يقاوم مصابه..

أتدري يا والدي أنا لم أره منذ زمن، منذ أن ذهب إلى جامعة الموصل لم أره إلّا لماماً، ولا بدّ أنّه تغيّر كثيراً.

الحياة، والزمن وهذه الحرب الفاتكة كلها تغيّر البشر.. وصف له طبيب من أقارب أمّه حقناً مقويّة إلى جانب العلاج العام لحالته، وليس من أحد سواك يستطيع زرق هذه الحقن وهو يرفض الخروج..

حسناً، سأقوم بالمهمة..

واصل التليفون رنينه، رفعته وقلت:

كلا.. أخطأت مرّة أخرى هذا ليس منزل محمود.. وعندما رنّ ثانية قلت بحدّة: - - هذا ليس منزل محمود. قال الصوت بتهذيب كبير:

-عفواً أأنت الآنسة (م).

-نعم.. ولكن من أنت؟

- صديق.. أرجو أن لا تغلقي الخط قبل أن تسمعيني.

-كيف تكون صديقاً ولا أعرفك.. أنا ليس لديّ أصدقاء..

- هذه هي القضية، أنت آنسة وحيدة، وتنشدين السعادة وبوسعي أن أقدّم لك مع صداقتي كل ما ترجينه من خير..

-كفّ عن العبث ياولدي ودعني أستريح.

عظيم، هذا ما أريده: راحتك.. أنت تدمّرين نفسك بالعزلة والتزمت والابتعاد عن الناس.. أعرف أنك إنسانة رائعة.. ولذلك أبحث لنفسي التحدّث معك..

ومن منحك هذا الحق؟

آه لو تعلمين، لكنت منحتني الحق كله، منذ سنوات وأنا متعلق بك، وأنت لا تعلمين ولا أحد يعلم، لم أحلم بامرأة قط كما حلمت بك.. ولم اعد أرى امرأة سواك في هذا العالم.

إسمع أنا لن أسألك من أنت، لأنك في الحقيقة لا تعنيني فلا تضيع وقتك وكلامك سدى يابني وكفاك عبثاً.

لست عابثاً صدِّقيني، ولكني أمتلك رغبة واحدة في هذه الحياة، وليأت من بعدها الطوفان: أن ألتقي بك.. أعلم أنها رغبة مستحيلة. ولكنني لم أيأس.. كنت أسمع صوتك وأزداد جنوناً بك. كنت أسمّيك سيدة المروج الخضراء، أسمّيك سيدة أحلامي.. ولا أجرؤ على الاقتراب منك.. كنت أستعير كتباً كثيرة من المكتبة العامة لأراك، وأذهب إلى كل مكان ترتادينه مع صديقاتك.. ومنذ أن قامت الحرب وانشغلنا جميعاً بالموت والموتى والمصائب لم أعد أراك تذهبين إلى مكان، أنا أحتفظ لك بالاحترام الكبير، فاسمعي حديثي حتى ينتهي، أرجوك، أتوسّل إليك.. أريد أن ألقاك فنتحدث وأعهد إليك بحياتي ومستقبلي..

اذهب إلى شأنك.. دعني لحياتي، وهمومي.. ثم من أنبأك أنني بحاجة إلى صداقة أحد؟ أبحث عن صبية جميلة في عمرك يمكن أن تسحرها كلمات الإعجاب والحب.. أمّا أنا.. فحذار: أرجوك لينته الموضوع عند هذا الحد.

لماذا لا تتنازلين برهة عن قسوتك وتحجّر فؤادك؟ ابتعدي ساعة عن غابة الكتب والأوهام.. أتلفت الكتب حياتك.. ادخلي الحياة وتذوّقي الحب، الحياة ليست حبراً وعفن أوراق وخزانات وأسماء، الحياة ليست أدراجاً للكتب وتصنيفات على طريقة جون ديوي أو سواه.. أنت ظالمة

تسجنين الآنسة (م) الجميلة الرقيقة الحالمة الجديرة بالحياة وراء أقنعتك القاسية.. دعيها تعيش..

أرجوك كُفّ عن هذا سأغلق الخط..

لم أنته بعد أتوسّل إليكِ أن اسمعيني.. أريد أن نلتقي.

جنون ما هذا إلّا الجنون ذاته..

بل هو الحب لو تعلمين.. سأعلّمك الحب وأهبك السعادة..

– أرفض العطيّة من أي أحد.. لو كنت شجاعاً يا بني.

– أنا لست جباناً، ثم أرجو أن تكفّي عن مناداتي بالفتى، ويا بني ويا ولدي.. أنا رجل كبير يخاطب امرأة كبيرة يحبّها..

– وماذا بعد.

– إعلمي أنّ في هذا العالم رجلاً يعبدك وأنت ترفضينه قبل أن تحاولي معرفته.

– إنك تثير ضحكي.. هذه سذاجة صبيان، أتَعلم من أنا حقاً؟

– أعلم، أنت المرأة التي حملتها في روحي طيلة أربع سنوات من دون أن أبوح باسمها لأحد..

– يا بني.. أنا كبيرة، تجاوزت عمر النزق والمغامرات

– ما تزالين شابة جميلة وساحرة.

– أرجوك لا تعاود الاتصال بي، هل تعدني؟

– إذا كان هذا يرضيك، أعدك... ولكن لن أكفَّ عن حبّك وسنلتقي مهما طال بك وبي الزمان...

ووضعت أوراق الآنسة (م) إلى جانبي وأنا أغمض عينيّ.. وكما اعتاد اتصل بي قبل منتصف الليل بقليل، كان صوته متعباً، وبدا أنّه أفرط في التدخين والشراب، لكنّه كان متوازناً لولا نبرة التعب الواضحة في صوته.

– أما زلت تقرأين..

بلى، لم أنم.. ولا أظنني سأنام.. وأنت ألن تنام؟

ما شأنك بي؟.. إنّك تلقين بي بعيداً عنك، ولا تريدين أن نصل إلى قرار حاسم بشأن حياتنا، أحبّك.. إذا ضيّعتك فلا جدوى من حياتي..

قلت وأنا أغالب دموعي: أحبّك.. لنرجئ الحديث عن القرارات لوقت آخر.

– لا تبكي، بكاؤك يخيفني، أرجوك لا تجعلي حبّاً مثل حبّنا عرضة للخسارة.. لا تفعلي.. ولا تعاقبيني.

– لو لم تكن هكذا، لما أحببتك، أنا أكره الأشخاص الذين يخفون بلادتهم وراء قناع من فضائل سخيفة.. أحب تناقضاتك، وجموحك، وتردّدك وأخطاءك وكل ما هو أنت.. أتسمعني..

– أسمعك يا مجنونتي الجميلة يا حبيبتي: هل ستواصلين القراءة وتمضين الليل مع آنستك الجديدة؟

–حتى أنتهي من مذكراتها..

–متى أراك... أريد أن نفعل شيئاً، أن نحيا بين أصدقاء، ننجب أطفالاً، ونخرج في الأمسيات معاً، متى... متى؟

–أنا أتوق لكل هذا فلا تتعجّل الأمور..

– أكاد أجن.. ما الذي يدعونا للتريّث؟.. ما الذي تخفينه عني؟..

– أسنمضي الليل نناقش هذا؟..

– أسنمضي العمر ننتظر أن تقرّري متى شئت مصير حبّنا، كم أنت ظالمة.

– ليست هذه غلطتي، خلقت هكذا وقد أحببتني مثلما أنا، أليس كذلك؟، وأحببتك كما أنت ألا يسعدك هذا؟

– يسعدني؟.. أتعرفين ما يسعدني حقاً: أن نتزوج صباح الغد، من الجنون أن لا يعيش المرء مع إنسانة مثلك، جنون أن لا آخذك إليّ حتى الأبد..

قلت وأنا أتنهّد: إذاً، استطعت منحك كلّ ما ترجوه..

– حتى هذه اللحظة، أعترف وأنا ممتن لك أنّكِ منحتني أكثر مما تتحمّل حياة بشرية محدودة مثل حياتي.. آه كم أنا متعب، وبائس.. لا أحد يقدّم لي طبق عشائي، أنا جائع، ولكنّي سأنام.. أتوق إلى زوجة مثلك، جميلة وتجيد صنع الحياة بيسر وفنّ... سأنام الآن.. أحاول أن أنسى أمنياتي وتنساي، أنساها لأبقيك وحدك من دون اشتراطات في قلبي..

بكيت، أنا العنقاء السعيدة العاجزة، بكيت.. أنا الزوجة المرجوة المتردّدة.. بكيت وارتضيت أن أكون كما أنا في الأقل حتى يتحدّد مصير رأسي والألم المجهول فيه..

– لديّ أصص مزروعة بالبنفسج، وضعت سبعة منها في النافذة، أنا أشبه هذه الأزهار الخماسية الأوراق، أظلّ مختفية بتواضع حكيم داخل حلمي، وأواصل العناية ببنفسجاتي. أنقلها من مكان إلى آخر.. حسب درجة الحرارة والبرودة. ليس لأزهار البنفسج عطر صاخب معلن بوقاحة، بل لها شذا حيّ مخبوء، شذا امرأة كتوم، لا يكاد ينتشر

أبعد منها، وعلينا أن نقترب ونقترب منها وننحني باحترام يليق بها ونعاملها برقّة وحب وحذر حين نمسك بها لتمنحنا عطرها وشذاها العميق الممتزج بحلاوة سكرية، حتى لكأن المرء يشم - إذ يشمّها - رحيقاً مكثفاً من جنان مدهشة.. تحوّلت بالتدرج إلى زهرة بنفسج عشبية معمرة، لم أعد أتطاول بشموخ الأشجار المتفاخرة، بل بدأت أزدهر بتواضع وسريّة البنفسج المقدّس الصموت. أمدّ فروعي داخل جسد الأرض، جذوراً، الآن ألن تنامي ايتها البنفسجة الزاهدة المحدودة العمر؟

قليلة المطالب؟ قلت: سأنام... ولم أستطع، كانت رغبتي في النوم ملتبسة، لماذا أنام؟.. ومع ذلك ارتديت قميص نومي، وأغلقت أبواب بيتي ونوافذي وأخذت دفاتر الآنسة (م) إلى فراشي.. قلت: مرحباً أيتها الآنسة التي تشرع في دخول التجربة: تعالي إلى جانبي، تعالي.. وجاءت، تخيّلتها فتاة ممتلئة، تميل إلى القصر، عيناها شاسعتان وفمها مزدهر، وشعرها كثيف متموِّج، لست أدري لماذا منحتها هذه الملامح مع أنّها ذكرت أنّ شعرها مثل شعر الغلمان مقصوص ومُهمل ولكنني كنت واثقة من جمال عينيها الشاسعتين وازدهار شفتيها، هذا ما أردته على أيّ حال.. وبدأت أقرأ في دفتر الآنسة "م"..

"... استسلم والدي للشيخوخة، ولكنه لم يكن مذعناً تماماً، كانت لديه حكمة بعيدة عن الإذعان أمّا أنا فبقيت أقاوم الزمن، لكن الذبول زحف إلى جسدي بدأت أهتم بجلدي وهو ما يوصلني بالعالم، هو الذي تقع عليه نظرات الإعجاب والحب والكراهية والرثاء، هذا الجلد الذي قد تمسه يد رجل سأحبّه يوماً ما..

زيت اللوز لليدين الجافتين، زيت السلحفاة المعطر وخلاصة نبات

البيلادونا: للوجه.. كمادات ماء الورد للعينين.. وهكذا سأحتفظ بمساحات فتية على خارطة وجودي المادي المهدد بالجفاف.. يبدو لي أنني بدأت أهتم بهذه الامور بعد تلك المحادثة التي أعلن فيها الرجل المجهول عن حبه القديم لي.. لست أذكر..

وقفت أمام المرآة أثبت أزرار ثوب من أثوابي الخضراء، أعادت لي خضرته العشبية صورة ذلك المرج الشاسع الذي يحيط بقصر مالك ثري في بلدة قريبة من بغداد، كنت أنا وإخوتي وأبناء عمي صغاراً مشاكسين وفرحين، كنا نرتع في ذلك المرج الأخضر العظيم الذي صوّرته لنا رؤى الطفولة على أنّه أكبر حديقة في الدنيا، كانت أمّنا تقول لنا:

إنّه يشبه الجنة ففيه الأشجار وجدول الماء والطيور. لطالما تسابقنا عدواً لنصل إلى سوره البعيد عن صف أشجار السيسم الشاهقة فنفزع الزرازير الصغيرة وطيور الزاغ، تهبّ محلِّقة نحو الفضاء، فنتساقط واحداً بعد الآخر على العشب تحت الشمس أو نستريح تحت الظلال وتنفض علينا شجرة السيسم أوراقها الريشية البرّاقة وأزهارها التي تشبه فراشات بيضاء في عناقيدها الغزيرة، نصير جزءاً من المرج والشمس والشجرة والهواء، نصير نباتات لها أسماء أطفال فرحين، ثم نعود راكضين إلى أهلنا الجالسين بوقار الكبار مع مضيفيهم. نسمع صياح الحارس ونحن نمرّ بكوخه المسْقف بالسّعف. يلفحنا لهيب التنور ونشمّ رائحة الحليب الذي حلبوه تواً من الأبقار الوادعة وتحدِّق فينا الجداول وتخور العجول الصغيرة ونحن نمسك بذيولها وترفسنا، وعندما نصل إليهم يؤنِّبوننا قليلاً أمام أهل الدار ويتوعّدوننا..

الآن ما عدت أرى مروجاً ممتدة، بل أرتدي ثياباً تقلّد المروج، مرج

حديقتنا أصفر ذاو ورائحة الحليب لا تفوح لأن الزجاجة المعقمة مغلقة، والسماء محجوبة بالستائر وأبنية الحجارة.. والصغار كبروا وتفرّقوا مابين جبهات الموت والبيوت المتباعدة.. لكنهم لم ينسوا متع الطفولة الرائعة...

الآن. إذ أرتدي ثيابي وأتجمّل أحسّ بشوق لذلك الصوت المجهول الذي دفعني من دون أن يدري للتفكير بالطبيعة، الطبيعة هي التي تحكم، ولا اعتبار جدير بالاحترام سواها.. أسمعه، ذلك الصوت الشاب يدعوني إلى الحب، يزلزل عالمي، وأنا أنتظر حلماً، قال لي لا تخجلي من الحب، ولكنني في الحق أخجل وأخاف، لا يمكنني أن أتصوّر مباهج الحياة من دون أن أحسّ بالخوف..

أمتلك الآن صوت الرجل المجهول وها قد بدأت نبراته تكتسحني، وتنقل إليّ وهج جذوة بعيدة: أخذت كتاباً، انشغلت بإعداد العشاء، اتصلت بأختي، أعدت ترتيب غرفتي، من دون جدوى، كان صوته ينبثق من كل مكان حولي ويطوّقني. ويصادرني: بدأت أخطو نحو الحب من دون أن أستطيع التراجع..

قال والدي: هناك رجل آخر جاء ليخطبك، هتفت: يخطبني أنا؟.. لعلّه أخطأ..

– كلا.. إنه يريدك أنت، وهو مطلّق في الخمسين ينشد ذرية لم تهبه إياها زوجتاه، مشكلته أنه غنيّ، ويريد أن يورث ثروته لولد تنجبينه له..

– جاء يرجو ذريّة منّي؟. ولكن ما أدراه، قد أكون عاقراً أنا الأخرى فإذا لم أكن، فقد جازفت بالارتباط برجلٍ عقيم.

– الرجل لا غبار عليه وليس في أسرتنا نساء عواقر.

– قد أشذّ عن القطيع المبارك، وعند ذلك لن يسأل نفسه لماذا فيطلقني ويبحث عن زوجة رابعة... وأعود إليك مطلّقة تحمل وصمة عقمها..

– كلا.. قال إنه يريدك فإن أنجبت له فذلك غاية مناه وإن لم تنجبي فهو يرجو أن تشاركيه وحشة سنواته المقبلة..

– لعلّه وقع أسير هواي؟

– أرجو أن توافقي هذه فرصة طيبة، وقد لا تجيء ثانية.

وخيّل إليّ أنني غدوت زوجة لذلك الرجل الكهل البدين المطلّق، المصاب بارتفاع ضغط الدم وربما بتشمّع الكبد، فقد عرفت أنه كان مدمناً – وهو يفخر بأنه لم يقرأ طوال حياته إلا كتابين أو ثلاثة، وسيكون عليّ أن أعاشر رجلاً محشواً بالأرقام والترهات والبلاهة، وأسمع تجشؤه وسعاله، ها أنذا أراه، بيده اليمنى مسبحة ثمينة ويسراه تمسّد رأسه الأصلع.. سيطلب مني أنْ أرتدي ثياباً مثيرة، وسيثقلني بالعقود والأقراط والخواتم ويطلب – وهذا حق مضمون له – أن أطيل شعري القصير وأصبغه باللون الأشقر الذهبي كما يحبه الرجال المتخمون أمثاله. وسيأمرني أن أتخلّص من نحافتي، وأن أترك التدخين، وأستلقي رضية النفس في انتظار وليّ نعمتي ومالكي.. كلا.. كلا..

قلت لأبي وامتلأ فمي بالمرارة وجاشت نفسي بالاشمئزاز وتقلّصت معدتي، فهرعت نحو الحمّام وتقيأت.. ونضح جسدي بالعرق...

قال أبي: سيقتلني همّك، أفي هذا الزمان ترفضين رجلاً مثل هذا؟ والله إنّك بطرة أفسدك الدلال.

ذهبت لأعطي فؤاد الحقنة المقوّية.. قالت أمه، إنه يرتدي ملابسه، لا يجلس في البيت إلا مرتدياً ملابسه الكاملة...

بعد قليل أقبل من الممر المعتّم باتجاه غرفة الجلوس، فوجئت به، ما كنت أتوقّع أنه غدا رجلاً مكتمل الرجولة على هذا النحو.

قالت الأم: ألن تحيّي أم أنّك تبخل علينا بالتحية..

قلت: بل أنا التي يجب أن تحيّي، ونهضت وأمسكت بيده صافحته، أحسست برعشة خفيّة في يده التي سحبها بسرعة، وقال بصوت مرتجف:

– مرحباً كيف حالك..

وخيّل إليّ أنني.. لست أدري ماذا أقول.. أنني قد سمعت هذا الصوت..

قلت: الله، ماكل هذه الأناقة.... لو كانت لدي ابنة لخطبتك لها..

بدا عليه الاستياء من مزاحي، زوى مابين حاجبيه ورفع يده يعدّل وضع النظارة السوداء على عينيه، سعل سعلة خفيفة وجلس.

قلت: سرعان ما كبرت يا فؤاد. يا إلهي ما أسرع مرور السنوات.

قالت الأم: إنّني خجلة.. نحن نتعبكم بمشاكلنا، سأسافر في الغد إلى الموصل لحضور أربعين أخي، هل بوسعك، أن تتفقدي (فؤاد) فترة غيابي عندما يكون والده وإخوته في العمل؟ أرجو أن لا أثقل عليك بهذا وأنت متعبة، وهمومك ليست بأقل من همومي وفؤاد ابنكم أيضاً وليس ابني وحدي...

قلت لها: ارحلي مطمئنة، سأرعاه رعايتك له.

قالت: تدرّب فؤاد على القيام بكل شيء منذ خروجه من المستشفى..

أعرف أنّك في إجازة هذا الاسبوع أخبرني الوالد.

قال فؤاد: يا أمي أنت تستنفرين كل الناس لرعاية ابنك.. هذا كثير جداً يا أمي..

قلت: إنها لم تدع أحداً سواي..

همس فؤاد بصوت خافت لا يكاد يسمع، أنت كل الناس..

تساءلت الأم عمّا همس به، قال لا شيء.. لا شيء.. همست أمّه لي: يبدو سعيدًا هذا اليوم، لم أره هكذا منذ زمن بعيد، ..

صاح بصوت مشاكس: تتهامسان؟ هل بينكما سرّ من الأسرار؟

قالت الأم: سأذهب في الغد وستزورك هي فإن شئت شيئاً لا تتردد، هم أهلك علىأيّ حال..

أعطيته العلاج واستأذنت قال:ستأتين غداً

قلت: وهل أخالف لوالدتك أمراً؟

ابتسم وهدأ، قلت أتمنى لك ليلة سعيدة مدّ يده نحوي فصافحته واستبقى يدي برهة ثم تخلّى عنها..

حاولت أن أفكّر، أن أنام، أن أهدأ، أو آكل أو أفعل أي شيء ففشلت: كنت ضائعة وحائرة.. لا أدري من أنا، وماذا سأفعل..

وعندما بزغ صباح اليوم التالي تعجّلت ارتداء ملابسي

قال أبي: أين تذهبين؟

إلى بيت فؤاد.. لعلّ والدته رحلت مبكرة إلى الموصل...

فتح فؤاد الباب، ووقف: حييته ودخلت، جلسنا.

قال بصوت مرتبك: لا تشغلي نفسك بأمري لست بحاجة لشيء إذا

شئت اذهبي لا أريد أن أثقل عليك.

قلت ضاحكة: إنّك تطردني، حسناً، سأذهب، استفز فؤاد ونهض ماداً كلتا يديه باتجاهي بحركة ضراعة ورعب:

– كيف يخطر لك أنني أفعل هذا؟ أنا أطردك؟ معذرة، لم أحسن التعبير عما أردت قوله...

– إذا كنت أضايقك حقاً، فإنني ذاهبة.

– أرجوك.. اسمعيني.. لاتسيئي فهمي، أنا أُسيء التعبير تماماً.

– سأذهب الآن عليّ أن أعطي الدواء للوالد... إذا احتجت إليّ اطلبني بالتليفون.. هل تناولت فطورك؟...

– أجل، أنا مستيقظ منذ وقت طويل... منذ الأمس.

– أحقاً؟.. أتريد فنجاناً من القهوة.

–ولكنّي أجيد صنع القهوة بنفسي..

– سأعدّ قدحين لي ولك.. ألا يزعجك أن نشربها معاً؟

بل سأكون في غاية السعادة.

عندما عدت أحمل صينية القهوة وجدته متجهماً،

قلت: تبدو متعباً ما الأمر؟..

لا شيء، أنا متعب، حقاً، .. متعب... معذرة..

– فؤاد لا تبدّد أيامك بالحزن، أنت شاب في مقتبل العمر، فلا تحرم نفسك من المباهج.. أعرف أنك تحمل ثقل تجربة مريرة، تركت آثارها على نفسك وجسدك.. ولكن لا تيأس سيعود بصرك سيعود..

– لست يائساً قَطّ.. أنا في الحقيقة.. كلا.. لست أدري..

- بل إنك تدري أنت رجل شجاع يا بني.

- الشجاعة؟. كلمة كبيرة لا أستحقها.

- بل إنك كذلك، أنا أعرف تفاصيل الحادث، الذي تعرّضت له.. أعرف أنّ شظايا القنبلة التي فجّرتها لتفك الحصار عن رفيقيك قد أصابت عينيك.. حكى لي الوالد كل التفاصيل، أنت شجاع كبير.

-كلا.. الشجاعة أكبر من هذا..

- فلأقل إنّك شجاع ومتواضع.

- لم أفعل شيئاً يمكن أن يوصف بالبطولة أو الشجاعة فلا تحمّليني عبء هذه الكلمات الكبيرة التي لا أفهم معناها، كنت في مواجهة مع الموت وهذا لاعلاقة له بالشجاعة -كنت أريد الحياة فحسب - اللعنة على الحرب.

كان صوته مرتعشاً، ويداه تتحرّكان بعصبية وثمّة دموع تحدّرت من عينيه.. أشاح بوجهه عنّي لبعض الوقت، أحسست بشيء عذب يتسلّل إلى صدري، شيء رقيق كالماء ينساب إلى عروقي اليابسة.. سألته بصوت متهدّج:

- فؤاد.. ما بك، أتبكي يا عزيزي؟ هل أثار حديثي حزنك.. يا إلهي، ماذا فعلت..

- بل إنّني... اوه... معذرة لقد سبّبت لك الحرج.

- علام اعتذارك يا بنيّ... لا بأس.. لا بأس..

انتفض فؤاد واقفاً وقال بنبرة استنكار شجية:

- أرجوك.. كفّي عن مناداتي بهذه الكلمة: يا بنيّ.. أنا رجل كبير و..

خيّل إليّ أنّني سمعت هذه النبرة المستنكرة من قبل...

قال: إذا شئت اذهبي، سأنام قليلاً إنني متعب:

قال والدي بعد عودتي: اسمعي يا ابنتي: العائلة كلّها تنتظر ردّك.. إنسي موضوع هذا الرجل المطلّق فالآخر يريدك أيضاً، وهو في عجلة من أمره يريد أن يحسم موضوع الزواج ويرحل بك إلى عمله في إحدى سفاراتنا، كلاكما في سن لا تسمح بمزيد من الانتظار.. وآمل أن لا تضيّعي هذه الفرصة...

لبثت ساعة أفكّر في كل شيء، ثم قرّرت أن أفعل شيئاً لا يتوقّعه أحد.. أن أوافق لأدهش نفسي، وأدهش الآخرين بقبولي بعد أن أدهشتهم برفضي المتواصل.

ضحكت وقلت سأوافق وسيظن الآخرون أنّ في الأمر خطأ ما، وعندئذ سيبحث بعضهم عن سبب لإعاقة الزواج..

سأرى في عيونهم فرحة من طراز مختلف، عيون أخوتي وأخواتي، وأبي، سوف أنجّيهم من حالة عنسي، ولن يرهقهم بعد التفكير بأختهم الوحيدة..

انتابني الخوف.. إذاً ستنتهي كل حياتي عند هذا المنعطف وستنهار أحلامي مرة واحدة وأخسر نفسي وكل شيء..

بعد الظهر، قلت لأبي فليأتوا، اتصل بهم يا والدي، وليحضروا هذا المساء..

– هل يعني هذا أنّك وافقت؟

– ألا يسعدك هذا؟

– بلى، يسعدني غير أني لا أصدق.. ولكني واثق من رجاحة تفكيرك..

– أليس هذا ما يريده الجميع؟

– شرط أن يرضيك..

– هب أنني رفضت أيضاً فماذا كنت ستفعل؟

– لن أفترض لأنّك وافقت حقاً وهذه آخر الفرص الجيدة..

– أعرف، فليأتوا إذاً.. وأريد أن أتحدّث إلى الرجل على انفراد..

– ليكن، إنه معجب بك كل الإعجاب، سأموت مطمئن النفس..

– وسأحيا في التعاسة.

– هذا إذا بقيت عانساً وحيدة.

– هذا إذا تزوجت بهذه الطريقة من رجل لا أعرفه. أصبح الأمر سواء لدي: إذاً فلماذا لا أتزوج !

في الصباح نظرت إلى بنصري، يلتمع فيه خاتم الذهب فزعت قليلاً، ثم تماسكت، سيدعونني السيدة، عقيلة السيد....

سدى أفنيت سنوات العمر أنتظر وصول الرجل المرتجى... سدى عشت تلك الأحلام الرائعة..

كنت شديدة التوتر والانفعال وأنا أدرك خطورة اللعبة التي أقوم بها: هذا هو العناد الأحمق الذي يفضي إلى الدمار: إنني أشبه بذلك المنتحرين. سألت نفسي لماذا.. لماذا؟ كان كل شيء غامضاً ولا مبرّر له ولا معنى.. لا بدّ أنّ في داخلي دافعاً لا أعرفه وضعني في هذه التجربة المرعبة.

قلت للرجل: إذا لم نتفق بعد الزواج، فيجب أن تخلي سبيلي، وبصراحة يجب أن تفهم ما أعنيه، إذا لم ترضني... أريد أن تكون العصمة في يدي.. لا أستطيع العيش، في زيف الولاء..

– قال: لك ذلك... أنا لا أرتضي ذلك لنفسي.. لكني موقن من قدرتي على إسعادك.. وهذا ما أتمناه..

كنت آمل أن يرفض، لكنه وافق مع دهشتي، أحسست أنّني ضعيفة، مستنفدة القوى، لقد ضيّعت ذلك الأمل العظيم، .. لم أبكِ، لفرط حزني وذهولي ودهشتي من نفسي، لم أبكِ.. باركت لي نساء الأسرة، وأذهلني احتفاؤهن الأبله بما لم أحفل به، سيأخذني الرجل الغريب إلى بلاد غريبة ويضعني وسط أناس غرباء، سيقتلعني من أرضي، ويبعدني عن أهلي وطيوري وبيتي، وانتظاري لصوت الرجل المجهول..

لقد انتهت الآنسة "م" أحقاً انتهيت؟..

من يستطيع أن يؤكّد لي ذلك أو ينفيه لا أحد سوى الحب...

بعد الإفطار قال أبي: لاتنسي أن تتفقدي (فؤاد)، لا تشغلك أفراحك عن واجبك. وذهبت دون أن اقول شيئاً، كنت أسير مثل المنوّمة وأعبر الشارع لأدخل بوابة بيت فؤاد.. أحسست بارتياح مدهش وخفق قلبي فتح فؤاد الباب ومد يده يبحث عن يدي، ترددت قليلاً قبل أن أمدّها إليه: اليد التي امتلكها رجل غريب بخاتم من ذهب بارد.. سحب يده لكنني أخذتها، سار مبتعداً عني، وقفت مرتبكة محرجة، تدفقت الدماء إلى وجهي.. خيّل إليّ أنّني أسمع ضربات قلبي.. عاد واقترب مني مدفوعاً بحدسه، أمسك بكتفي وقال:

– ما الذي يحدث.. أنت اليوم مختلفة عنك بالأمس؟.. ماذا جرى في العالم؟..

– لا شيء... سوى أنّني مرهقة..

– لماذا أتيت؟..

- لأراك..

- أحقاً..؟.. جئت لتريني.. هل تعنين ما تقولينه حقاً؟

- نعم.. لقد وعدت الوالدة أن أرعاك..

- وجم فؤاد مرة أخرى، وأمسك يدي.. ثم رفعها إلى فمه وغمرها بقبلات سريعة متلاحقة مجنونة..

سحبت يدي بسرعة..

- فؤاد.. ما الذي تفعله؟

- معذرة.. لا أدري.. أرجوك، اغفري لي واسمعيني.. اسمعيني يا منى..

ولأول مرّة أسمع رجلاً جميلاً ومرتبكاً ينطق اسمي بصوت مرتعش.. قلت لنفسي.. أنت إذاً من انتظرته طوال سنوات عمري، لا أكاد أصدق.. لا أكاد أصدق..

- أنا ذاهبة.. لن أسمع شيئاً..

- انتظري لحظة واحدة.. أرجوك..

واقترب مني، كان يحاول أن يتماسك، لكنّه فشل في السيطرة على اضطرابه، قال:

- أتخافين مواجهة نفسك؟

- عم تتحدث؟

- لست أتحدّث عن الأفيال في غابات الهند كما ترين.. أنا أتحدّث عنك.. عنك أنت..

- وما شأني أنا؟

– هل تعتقدين أنك ستكونين راضية عن نفسك إذا ما ذهبت وتركتني الآن.. ؟

– سأشعر بالقصور تجاه واجب أوكل إليّ... !

وتصاعد الدم إلى وجهه الجميل، تورّد عنقه وبرزت عروقه.. ورفع يده في حركة يائسة إلى وجهه

– فقط.. أليس هناك شيء آخر؟..

– هناك أفيال الهند التي تحدثت عنها..

– منى، لماذا لا تحاولين سماعي.. أرجوك كفّي عن السخرية... أنا..

– أعرف ما تريد قوله..

– لا تعرفين إذا واصلت سخريتك وعنادك..

وأمسك بكتفي فارتعشت تحت يده، لم أعرف هذا من قبل، لم تمسّني يد رجل ولم يحدّثني رجل حديثاً كهذا..

أَنفلت من يده المستقرة في ضراعة على كتفي، قال صوتي الذي أتى من بعيد جداً..

– وداعاً..

وأسرعت نحو الباب، ثم اجتزت الشارع إلى بيتنا غير آبهة بحركة السيارات المسرعة فيه....

تساءل أبي: ما بك يا منى؟

لا شيء.. كدت أسقط تحت عجلات سيارة مسرعة..

شربت الماء، وجسدي يرتعش، جلست في غرفتي، وأنا أمسك بكتفي

لأحتفظ بدفء اليد التي كانت تحط عليه.. قبّلت يدي التي غمرها بالقبلات وبكيت.. أهذا ما يسمّونه الحب؟ أهذا هو الوجه الذي وجد الآن من أجلي وكان دائماً أقرب إليّ بحساب المسافة من كل البشر؟ أي حَمَق تصنعه الحياة بنا، وأيّ سخرية.. ؟..

رن الهاتف، قلت لن أجيب، واصل رنينه قلت: نعم

– منى لماذا هربت؟.

– لم أهرب، ألا ترى أنني في بيتي..

– منذ أربع سنوات أنتظر هذه اللحظة. وها إنني أجدك من دون أن أراك، ما يعزّيني أنّني أعرف ملامحك وابتساماتك، وكل تعابير وجهك.. أنت أجمل النساء، كنت معي في زمني كلّه، حاولت أن أحب فتيات أخريات ففشلت، كنت تكتسحين كل شيء مثل تيار نهر عظيم وتبقين أنت.. أنت التي أحببتها في هذا العالم...

– فؤاد.. أرجوك كفّ عن هذا الآن، بيننا مسافة هائلة من الزمن... سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً وبيننا مستحيلات أخرى..

– يلغيها الحب، أنا أعني ما أقوله.. ما جدوى كل شيء بدونك؟.. لا قيمة لشيء بعدك.. ما جدوى أن تكوني أنت جميلة وفاضلة من غير أن يحبك إنسان حبّاً مثل حبي.. لن نساوي شيئاً من غير حب، مهما قلت فليس بوسعك تحطيم هذا الحب.. ألا تنشدين السعادة؟

– السعادة؟.. أنت تضحكني، أين هي في هذا العالم..

– بوسعي أن أمنحك إياها.

– وإذا رفضت؟

– تكذبين لطالما سمعتك تتحدّثين مع أمي ولطالما حدّثوك عن الزواج فكنت تردّدين: لم يخلق بعد من يستطيع منحي السعادة.. كنت أبكي بصمت، وأنا أسمع كلماتك الحزينة..

– وجئت الآن تقدّم شبابك أضحية لسعادتي.. أنا التي تصلح أن تكون أمّاً لك، لقد وافقت على خطبتي لرجل..

– مهما فعلت لن يكون بوسعك مقاومة هذا الحب.. وداعاً.. أنا على يقين من أنك لن تتزوجي هذا الرجل الذي تحملين خاتمه...

عندما نامت المدينة، وقفت أمام نافذتي، سمعت موسيقى تتسلّل من بعيد، خُيّل إليّ أنّها تنبعث من غرفته.... لعلّني بدأت أعود إلى الأوهام..

أويت إلى سريري، أغمضت عيني، لم أعد أتخيّل وهماً، أمامي وجه، ولديّ صوت يناسبه، ورائحة، ورعشة يد، وحزن.. وبين يدي حقيقة رجل موجود، ليس ببعيد عني، ولكنه بعيد كل البعد...

وللمرّة الأولى أغمض عينيّ على صورة وجهه متعباً، لكنه توهّج بالحياة. عندما حييت ودخلت، قلت له: فؤاد، فات أوان كل شيء، سأتزوج بعد أسبوعين وأرحل معه..

– لن تتزوّجي أنا أرى ما سوف يحدث.

– كفّ عن المزاح.. هذه هي الحقيقة..

– في الحب لا أمزح وعندما أريد شيئاً لن يقف بوجهي أحد.. هكذا تعلّمت.. لن يقف هذا الخاتم الصغير اللّعين بيننا. أريدك.. أريد صوتك ونبضك وأنفاسك. أريد كلماتك ولمسة يدك وقبلاتك... أريدك... أنت لي... لن تكوني لرجل سواي.. الحب لن يأتي سوى مرّة واحدة....

قلت لنفسي: حقاً، لم يحبّني أحد بهذا القدر من قبل، ولن يحبّني أحد، ... لن يحبّني أحد سواك..

وتصوّرت الرجل الآخر.. العلاقة الرسمية المحكومة بورقة مكتوبة – صك البيع والشراء، ألتزم بموجبه بالخدمة والإنجاب والرفقة ليل نهار شئت هذا أم لم أشأه ولكن من دون حب، وسأكون معرّضة للخيبات وفقدان الأمل، وسيظلّ مكان ما في روحي يحتوي هذا الوجه بعذوبته وملامحه الجميلة.. وسأحنّ إليه كل ليلة عندما يلمسني الرجل الآخر وأتخيّله معي.. وأعانقه، .. كلا.. إنّ هذا لَشَنيع..

كنت أرتدي ثوباً صيفياً أخضر منقوشاً بأزاهير وغيوم، ثوباً رقيقاً يصلح للمس وامتصاص الدموع، قلت لنفسي بنوع من الأسف:

– إنّه لا يرى ثوبي... إنّه لا يراني.. مدّ ذراعيه نحوي، فلم أتراجع، قال: كنت موقناً من عودتك إليّ.. وضمّني إليه.. كان دفء شبابه يحتويني، نسيت عمري وسنوات انتظاري له.. فاحتضنت وجهه بين يديّ وقبّلت جبينه، وشعره الناعم..

همس لي: إن كان لي الحق في أن أحلم بالغد أنا الذي فقد بصره، فأنت غدي.. أنت وحدك يا منى..

– لا تقل هذا....

– وهذا الخاتم في يدك؟

– سأعيده دونما أسف..

– ألن تندمي... ؟

– لن أكذب عليك .. لا أشعر بأي ندم لأنني لا علاقة لي بالموضوع.. كنت حمقاء إذ وافقت..

– ولن تتراجعي..

– سأحبّكَ إلى الأبد..

– منى، سآخذك بعيداً عن هنا...

– بل سنبقى هنا..

– أخشى أن يشقيك التحدّي.. ألديك ما يكفي من القوة لتواجهي الاعتراضات.

– ألديكَ منها الكثير؟

– أجل.. وإلّا لما عرضت عليك حبّي، منذ عام واليوم..

– سأستمدّها منك...

بكى فؤاد على كتفي، سمعت نشيجه الرجولي الذي أنساني كبرياء السنين وحزنها، ضممته إلى روحي، وقبّلت وجهه وعنقه وكفيه وارتشفت دموعه.

قال: ستبقين معي.. ستبقين معي.

واصلت القراءة في دفاتر الآنسة "م" الساعة الآن بلغت الثانية بعد منتصف الليل، بقيت بضع صفحات، أريد الاحتفاظ بمذاق المفاجأة، أدهشني حب فؤاد لمنى، هذا الحب الصاعق المكتسح، رأيت فيه، ماضي حبِّنا، إنهما يقفزان فوق السنين والأسى والفوارق كلّها، أعترف أنّني بكيت، لماذا لا أدعوه الآن وأُعلن، قراري، أنسى مرضي والخطر الذي يتهدّدني وأقول له: خذني... الآن وإلى الأبد..

آه، لَكَم تبدو الأمور منطقية عندما يسقط كل منطق، أيقظتني قصة الآنسة "منى" وحبّها، إنّ حبّنا لا يشبه حبّهما العاصف، ولكنه حبًّنا الذي صار ابنا جميلاً لأيامنا، صار معبودنا وشمسنا ودافع كل أفعالنا، أصبحنا ننسى أنفسنا، ننسى الإنسانين الحزينين الفرحين المتعبين، ونجلس لنتعبّد أمام حبّنا كأنّما هو شيء يقع خارج حدود روحينا وجسدينا: مثل نهر يجري في حقل نملكه.. نضعه بيننا، نتحدّث عنه، نحبّه ونقسم أن نحميه من حماقاتنا وأنانيتنا وجنوننا، ونبكي من أجله عندما نكون في منأى عنه!

أجدنا مثل عجوزين يائسين صديقين يدرجان في الزمن ويرتديان عباءة الشيخوخة باستسلام،... لكنّه حبّنا هذا الذي نعبده ونتحدّث عنه، ونتعصّب له.. آه: يا لحُمْقنا، بدأنا ننحيه جانباً، وندعن لانشغالاتنا وهمومنا الأخرى، وصرنا نقلّد عاشقين قديمين كنّاهما، نقلّد لحظاتهما وكلماتهما ونحن نتحدّث عمّا هو خارجنا ولا يخصّنا، كأنْ يقول لي:

– الحب يتّخذ أشكالاً مختلفة في كل مرحلة من مراحله، لكنّه يبقى في جوهره حبّاً..

أهذا تبرير العاجزين عن اللحاق بالعاصفة؟. كم أتمنّى أن أصدّق، هل سيكون بوسعي تصديق ذلك، عندما يعدني ببيت جميل وأطفال رائعين وأيام عيش مدهش؟ هل سيكون قادراً على تصديقي وأنا أتحدّث عن نزهات وأوقات سعيدة تنتظرنا على الجانب الآخر من الزمن؟.. أي زمن، إنني أتساءل، .. هل أصدّق، هل يصدّق؟ بعدما صار حبنا شيئاً جميلاً أشبه بتمثال ثمين يشبهنا، يفصله عنا تيار لامرئي من الزمن والغربة التي تحاول أن تختفي في هيأة تعقّل ومنطق... لست أدري ماذا

أقول بعد، إننا نرهق حبّنا بما هو مؤسف ونتصرّف حياله مثل آباء متسلّطين أو أوصياء ذوي حكمة رثة..

آه، أنا مبلبلة، أيقظني حب منى وفؤاد من غفلتي، إنّني مهدَّدة، ومرتعبة، سأبلغه قراري نتزوج وليبقَ الورم في رأسي، سيذيبه حبّنا، ويقتله الفرح المشتعل والنشوات العظيمة، سأذهب لحفلة زواجنا، ندعو خمسة أو ستة من أصدقائنا، ثم نرحل إلى مكان ما، .. إلى أنفسنا القديمة...

عدت إلى الآنسة "م" وقرأت.

وضعت خاتمي بل خاتم الرجل الغريب في علبته المخملية مع العقد الذي تزيّنه حبّات الياقوت الأحمر والماسات الصغيرة، وأغلقت العلبة عليهما، اتصلت بأختي، وأنبأتها بقراري: لن أتزوّج. قالت: لم يمضِ سوى يومين على خطبتك.

– لن أتزوّجه..

– أيّ فضيحة.. هل أنت واعية لما تقولين؟

– لن أتزوّجه.. وَلْيَنْتَهِ الأمر عند هذا الحدّ..

قال أبي: هذا ما كنت أخشاه.. لحظة جنون تهدمين فيها كل شيء..

لم أقل كلمة واحدة، لم أقل لأحد شيئاً.

في تلك الليالي كنت أنتظر الرجل الذي سأحبه وعندما وصل إلى أرضي كنت موشكة على ارتكاب حماقة، العمر كلّه حماقة كبيرة، ماذا سيقول أبي وأخواتي وأخوتي إذا ما تزوّجت فؤاداً؟

ماذا سيحدث لنا؟.. قال فؤاد: آخذك بعيداً عن هنا، نذهب إلى خالي في الموصل، لديه بيت صغير جميل ويعيش مع زوجته ولا أبناء لهما..

وسأعمل هناك. فابتسمت بإشفاق، قال: لماذا لا تقولين شيئاً؟ هيا، دعيني أسمع صوتك.. هيا تحدّثي إليّ...

هو لا يعلم كم يبدو رائعاً ومثيراً للحب والحنان .. وكدت أفقد رشدي لشدة انفعالي، كدت أذوب حناناً وأنا أرى الوجه الجميل يتضرّع إليّ، هل سيكون بوسعي أن أمنحه السعادة؟.. أن أحميه من اليأس، أن أقاوم معه الاعتراضات.. لست أدري كل ما أعلمه أنّني أحبّه، أحبّه، ولسوف أتخلّى عن كل شيء من أجل لحظات الحنان العظيمة التي يعدني بها. هل أستطيع.. هل أستطيع؟.. لست أدري.. لم أجد جواباً لتساؤلي.. إنما عمدت إلى كتابة يومياتي لأواجه نفسي، والماضي وهذا الحب العاصف.. وابتعدت أياماً عن فؤاد وعادت أمّه من الموصل، وأنهيت كتابة دفاتري، وقرّرت أن أقدّمها لك أنت، تبعتك في غدوك ورواحك.. وعرفت أنك ستخرجين صباح الغد.. قرّرت أن أكمن لك، وأضع أمامك حياتي، لعلّك تعيدين صياغتها أو تنشرينها .. لعلّك ستحرقينها أو تحتفظين بها.. لكنني أدرك لمن أعهد بحياتي... أنت الإنسانة الوحيدة التي أأتمنها على أسراري.. لقد قررت أن لا أتزوج أحداً.. أعلى مراحل الحب هو أن تجدي من انتظرته عمراً، وتعرفي من هو.. وتريه فتنتهي الأسطورة.. لن أتزوّج، سأعود إلى غرفتي، غرفة النساء الوحيدات، غرفة العاشقات الوحيدات، سأعود إلى طيوري وكتبي، وأبي، وسأحب فؤاداً ما حييت، غير أنّني لن أتزوّجه لئلا يذبل حبّي له، وحبّه لي.. تذبله الأخطاء والاعتراضات، ويذبله الملل، والزمن والناس والعمل وأمه وأبي، وأهلي..

لم أبلغه بقراري.. ولست نادمة لأنني اندفعت إلى حبّه، ذلك أنّ لقائي به كان أقصى مراحل سعادتي.. فماذا سيأتيني بعد ذلك؟ لست نادمة لأنني أحببته خلال أيام قليلة حب سنوات طويلة..

عندما التقيته أمس للمرّة الأخيرة، كنت أعرف أنني لن ألمسه بعد ذلك، لن أقبّله، ولن أسمع صوته الهامس.. لم يطاوعني قلبي، نظرت إليه بكل حواسي الظامئة لكي لا أنسى لون وجهه، مساماته، شعره، انحناءة ذقنه، جبينه، أصابعه.. إنني جبانة.. أريد الاحتفاظ باللحظة الكبيرة قبل أن تستحيل إلى أكذوبة، إنني حمقاء، إنني عاشقة... والعشّاق أول الحمقى وآخر الحكماء... معذرة إذ اقتحمت حياتك الجميلة، إنّني أراك مثالاً، وأحبّك. وأنت تعرفينني حتى إنّنا كنا صديقتين في منتصف السبعينات، إن كنت لا تذكرين فلا بأس في ذلك... عليّ أن أجعل الناس الرائعين ينسونني.. هل أتمنّى الآن شيئاً؟ هل يحقّ لي بعد اليوم أن أتمنّى؟ أظن أنّني على قدر من البلاهة إذ أفكّر بأنّني ضحّيت بحب فؤاد من أجل فكرة حمقاء: أضحّي بالحياة من أجل ذلك الذي يشبه سطراً في كتاب قديم، البقاء في حرارة اللحظة الكبيرة.. هل أتمنّى شيئاً؟.. نعم أتمنّى أن أراك أنت، أن أبكي لديك.. أهرب من جنون حبي إلى تعلّقي الصافي بك، هل تقبلينني.. سأزورك.. وسوف نتحدث ولكن لا أريد أن أزيد آلامك.. أختي طبيبتك، عرفت أنّك تعانين من ورم.. لا أريدك أن تفقدي الأمل. جنِّبي نفسك مشاق القلق.. نظرتُ إلى وجهي مرة أخيرة في المرآة، ولم أقلق لخسائري، ولم يرعبني الذبول الزاحف إليه: بعد أن وجدت رجل حياتي وهدأت في رأسي الأسئلة ما دمت أحبّه، فلا شيء يعني أكثر لي أو أقل... سواءٌ لدي الآن أن أموت أو أن أحيا.. لكنّني لم أنسَ وجه الذي أحبّني كلّ تلك السنوات...

وأغلقت الدفتر الأخضر الأخير.. وبكيت، ستأتيني منى، وتبكي حبّها وحمقها، وسأراها، وأحدّثها وستراها عائدة، وتذكرت، عليّ أن أذهب مع عائدة مساء اليوم إلى المحامية، وأن أشتري ملابس جديدة وأستَعدّ لتنفيذ قراري... وابتسمت لنفسي، نظرت إلى الغرفة، كانت مزدهرة

بحياة جديدة وأنا مخلوقة شفافة عذبة عاشقة وغرفتي لا تشبه غرف النساء الوحيدات وكلمات منى تترددّ حولي ويصير لها صدى من حنان وضوء: العشاق آخر الحكماء.. العشاق أوّل وآخر الحكماء...

هـــــــــو الذي أتى

١٩٨٥

هذه القصة ليست سوى "قصة حب" وما هي بالأسطورة أو الخرافة، وأنا إذ أرويها لكم لا أنتظر منكم أن تصدِّقوها، حسبي أنّني عشتها، وبين يدي البيِّنة المادية التي تثبت لي وللآخرين حقيقة حدوثها، والقصة بعد هذا لا تخص أحداً سواي - في الأقل على المستوى الشخصي - لأنها بهذا الاعتبار قصّتي وحدي وأنا بطلتها وشاهدتها الحية..

نهال

كلما دخلت متحفاً كان يحدث لي هذا الأمر الغريب: دُوار وضيق في الصدر وانبهار في الأنفاس يتبعه خدر يسري من أسفل الرأس إلى الظهر والأطراف. أجل كان يحدث لي ذلك ثم تبدأ يداي بالارتعاش ويتسارع نبضي وتجتاحني موجة من الحرارة، يتوهّج بها جسدي كلّه.. لست امرأة ذات خيال بارع، أو كاتبة تبتدع الحكايات الغريبة، إنّما أنا مدرِّسة تاريخ مولعة بحضارات العراق القديمة ومهتمّة بما وراء النفس والطبيعة ومفتونة بالخوارق.... !

حاولت في البداية تجاهل هذه الأعراض، فكنت أقاومها، وأتغلّب - إلى حدٍّ ما -عليها، وقد عزوتها حينئذ إلى اضطراب في صحتي، كنت أقول: "لعلّني مرهقة، أو أنّها أعراض هبوط في ضغط الدم، أو نقص

في عنصر المغنيسيوم، أو أنّني أعاني – شأني شأن معظم المحبِّين – من عوز النوم". إلّا أنّ تكرار الحالة، وفي أوقات مختلفة وأنا في كمال صحتي، أثبت لي أنّ في الأمر سراً ليس بوسعي إيجاد تفسير له... وهذا السرّ مرتبط بتلك العوالم القديمة التي ضغطت عصورها الألفية في قاعات المتحف الكبير..

وقبل ثلاثة أيام حدث لي الشيء نفسه وأنا أزور المتحف مع طالباتي بعد أن انقطعت عن التردّد على هذا المكان طيلة ثلاث سنوات وبضعة شهور، سبقتني الفتيات نحو الممرات والقاعات... كنت متردّدة في الدخول، لكنّني تماسكت ومضيت، وما هي إلّا برهة حتى بدأت أحسّ بأعراض الدوار، فأخذت أترنّح وازداد نبضي وتقطّعت أنفاسي وبدأت أقاوم. عندما لم تُجدِ مقاومتي، توقفت في الممر البارد ومددت يدي إلى الجدار أتمسّك به.. ثم أسندت رأسي وظهري إلى سطحه الأملس. بعد قليل أحسست بشيء من الراحة وأنعشتني برودة الرخام الناعمة الملاصقة لوجنتي الملتهبة، كنت مغمضة العينين، ولربما تنهّدت عندما أحسست بالرخام الصقيل دافئاً من حرارة وجهي ونظرت إليه، كان أشبه بثوب ساتان لؤلؤي ترتديه أم مجهولة ألوذ بها من عذابي..

تحرّكت مغادرة الرواق ودخلت القاعة السومرية، كانت الفتيات واقفات أمام رأسي الملكة "بوآبي" السومرية تضيء عيونهن الدهشة وتتشكّل حولهن موجات من دفء الصِّبا ورائحة الانفعال.. وفي الضوء تراءت لي وجوههن أشبه بأقمار صغيرة وهن يتوهّجن بالإعجاب أمام جمال ملكة أور وحُليِّها التي صيغت من ذهب ولازورد وضياء، كنّ يحدّقن بزهرات الأقحوان الثلاث المشرئبّات فوق رأسها الذي طوّقته ثلاث صفوف من ورق الخوخ الذهبي والحلقات والمثلثات الذهبية وكلها مدلاة فوق الجبين القمحي.

أحسست بالحنان واللهفة على هذا الوجه الموحي بحزن معتّق، الوجه الذي نظر إليّ بشيء من العتب المذل رغم الكبرياء التي تحتضن قسماته الشامخة وتمنحه ملكية تليق بجماله السومري.

منذ سنوات وأنا أتجنب زيارة المتحف - لأن الدوار والخدر يحلّان بي كأنهما اللعنة كلما رأيت الهياكل العظمية وأواني النذور التي يعلوها أوكسيد النحاس الأخضر والتماثيل المستغيثة من أسر الحجر.

ومرة أخرى افتتنت الفتيات بتلك العقود الرائعة التي كانت تتزين بها كاهنات أور المترفات، عقود هي هدايا الملك لمحظياته العابدات، منظومة من خرز الذهب والفضة واللازورد والعقيق..

وبهرتهن براعة الفن، من دون أن يخطر ببالهن ما وراء ذلك الجمال من تفاصيل خفية: من حب وبغض وغيرة وسحر ومكائد والآم ونبوآت..

اقتربت مني إحدى الفتيات وقالت:

- ست نهال . وجهك شاحب، أنت متعبة، أتحتاجين لشيء؟..

- لابأس.. عليّ.. لاتشغلي نفسك بي... اذهبي وتمتعي بزيارتك.

طرفت عينا الفتاة وتوهّج خداها، ثم سرت في صوتها رجفة الانفعال وهي تهمس باسمي من جديد: ست.. نه.. ال..

- اذهبي ياسميراميس لا تقفي هكذا أمامي، اذهبي لئلا تسمعي من الأخريات ما يكدرك...

- أأحضر لك شيئاً تشربينه، أم أنّك بحاجة إلى دواء؟..

- عندما أحتاج لشيء فلن أنادي سواك..

اختلجت شفتا الفتاة ومدّت يدها الصغيرة إلى كتفي، مسّتها بسرعة ثم سحبت يدها بخوف..

كانت الفتاة ترفرف حولي في الجو البيتي والمدرسي المشبع بروائح النساء أشبه بحمامة ضائعة، وتهدل بكلمات غريبة ناعمة.

كلمات تستفزّ وحدتي وحزني فأقاومها، وكانت تعتني بي وترعاني كأنّها أمّي.. أنا التي يمكن أن أكون أمّها، ثم تختطف مني بعض الأشياء الصغيرة تذكارات لها: - منديلاً مطرزاً بزوايا من الدانتيل، قلماً، مشبك شعر وسوى ذلك من الأشياء وتحتفظ بها كأنّها تعويذات مقدّسة أو تمائم. ثم ما تلبث أن تقدّم لي على عادة الفتيات هدايا رقيقة حلوة: قلوباً من الحلوى نقشت عليها الحرفين الأولين من اسمي واسمها أو باقة زهور صغيرة مربوطة بشريط مذهب، أو بطاقة ضمّنتها عبارات جاهزة كتبت بحبر فضي ووشيت بالزهور، وبدأت مناورات الصبيّة تضايقني، لكنّها كانت ترضي ناحية ما من روحي المستوحشة، وتمنحني غبطة سرية، ولكي لا أستسلم لهذا كنت أزجرها حيناً، وأتجاهلها حيناً آخر..

- اذهبي يا سميراميس.

وخفضت الحمامة جناحيها وأسبلت أهدابها المخضلة بالدموع، ورمتني بنظرة عاتبة وغابت في القاعة الواسعة.

سرت قليلاً، ترددت، لكنني لم أتوقف، رأيت جدارية نحت بارز تمثّل كهنة يقدّمون قرابينهم للآلهة، والملك يسير أمامهم، كانوا يحملون جداء صغيرة وغلالاً وخبزاً مقدّساً وخوابي ذات أعناق رفيعة لاشك أنّها ملأى بخمر التمر وبعضهم كان يحمل أواني تطفح بالزيوت الطيّبة. تناهى إليّ ضجيج مبهم وهمهمات، ثم علت الأصوات حتى حاصرتني واستحالت إلى ابتهالات وصلوات بأصوات عميقة راعشة تفيض خشوعاً وضراعة أحسست بها تنبثق من تحت قدميّ، تصعد

حادّة وساخنة تكتسح جسدي وتغمرني بنيرانها، إنّها تأتيني من أعماق العالم السفلي، لا بدّ أنّها الإلهة ايرش كيكال ربة عالم الموت تستدرجني، وتنفث سحرها الأسود عليّ، وتدعوني.. كنت أقاومها، وأنفض عن جسدي صدى الأصوات وأتمتم: سأنجو منها، سأنتصر عليها..

كنت أظن أنّ مرور هذه السنوات سيغيّر من الأمر، وسيضعف تأثير تلك العوالم الخفية على روحي، ولكنني كنت مخطئة فكل شيء عاد أشدّ وأقوى من ذي قبل.

وقلت: سأمضي ولن أتراجع مذعورة.

وتصبّب العرق من جسدي، ونضح من جبيني، وترنّحت مثل شجرة صفصاف، أمام رياح الجنوب، فإذا باليد الصغيرة الناعمة تمتد إليّ تسندني وتقدّم لي علبة "عصير التفاح". قالت سمير اميس: لعلّك ظامئة، خذي واشربي.. نحن في القاعة الأخرى، أنا ذاهبة قبل أن تطلبي مني ذلك..

وامتلأ رأسي بالأصوات وقلبي بالحزن وروحي بالخوف، وأرعبتني عودة الخدر والدوار، قلت: سأتجوّل في القاعات، وأسرعت كأنما تدفعني رغبة غامضة نحو عمق القاعة، كنت وحيدة وحولي أشياء كثيرة لا أكاد أميّزها..

كنت شجرة صفصاف وحيدة لا تفهم شيئاً، ترتعش أغصانها من فرط الخوف، توقّفت، وتشاغلت بأمر تافه: فتح "علبة العصير"، وفاح العبير الحلو كثيفاً وحاداً! وفي تلك اللحظة صارت القاعة جزيرة شاسعة خالية إلا من ذلك التمثال الحجري الأبيض الذي يتصدّرها. ومضيت إليه مثل ممسوسة بسحر، اتجهت نحوه من بعيد، كان التمثال

يرنو إليّ بعينين سومريتين واسعتين، وشفتاه الرفيعتان تحاولان النطق بكلمات مجهولة، بصوت لا أعرف بعد نبرته ولا مداه.. وتعالت الأصوات المرتّلة مرّة أخرى، وغمرني ضوء وبهر عينيّ، ثم أدركت أنّ الأصوات والنور ينبثقان من داخلي، من أعماق قلبي وتوقفت:

- اقتربي، تعالي لا تخشي شيئاً.

وأظنني اقتربت ممتثلة لتلك الدعوة، وسمعت الصوت الذي له جرس صوت إنساني رخيم:

- تعالي اقتربي..

وذهلت، وحدّقت في الوجه الحجري، وتصاعد في عروقي رحيق حلو له قوة النشوة ومذاق الخوف.

يا إلهي أيّ معجزة؟ إنّه هو. الوجه العزيز والقسمات القوية والشفتان المنفرجتان قليلاً والحاجبان المقرونان، هذا هو وجهه، بتعبيره الصارم والقوّة الممزوجة بالرغبة وسماحة التأمل..

واقتربت مني مشرفة القاعة وقالت:

- اكتشفناه حديثاً، وقد وضعناه في القاعة منذ أيام قليلة: إنّه جوديا - حاكم لكش السومري.

وتجاوزتني السيدة من دون أن تلحظ ما بي، لربما تفوّهت بكلمات، وقد أكون ناديته باسمه، فها أنا ذي ألمح ومضاً يشعّ من العينين ويحرّك جمودهما الحجري للحظة فتسطعان بنظرة حب ارتسمت فيهما حياتي كلّها..

اقتربت منه، لمست جبينه ومررت أصابعي على الندوب التي حفرتها آلاف السنين والعواصف والطوفانات والحوافر والعجلات على

حجارته الثمينة، وتراءت لي تحت القشرة الصقيلة للحجر عروق ممتلئة بالدم الساخن ومن هذا الدم تصاعد النداء وخطفني من الأرض. مددت يدي بخشية وتعبّد، وخفق قلبي.

أحسست تحت أصابعي بجذور الشعر على الذقن القوية، ورأيت الشفتين يزداد انفراجهما وفي غموض الدهشة والشوق والاستجابة المسحورة انحنيت عليه، كنت مثل من يسير أثناء نومه، انحنيت أكثر ومسّت شفتاي شفتيه وقبّلته، ثم تراجعت، أمام هذا الوجه الذي امتلكني حضوره وغبت عن الدنيا ثم صحوت "إنّه جواد" يا إلهي أيّ معجزة؟ "جواد" يغادر الموت ويلمع في عينيه بريق الذهب، يجيء به "جوديا" مخترقاً التاريخ، تلكما عيناه السومريتان المشتعلتان حبّاً، وشفتاه، ولون وجهه ورائحته وصوته – وتعالت فجأة أصوات من رخام وحجر ونحاس وأخذت ترتّل – أنشودة الخلود من كتاب الموتى الفرعوني:

لم أمت ولم يمت اسمي..

لم أمت ولم يمت اسمي..

وامتزجت الأصوات المرتّلة، الأصوات الباردة بصوت جواد الدافئ، الليّن، الأخضر:

إليّ.. انهضي... اقتربي.

وكان صوته القديم النضر، ورأيته أمامي وسمعت كلماته التي لم أنسها قط وهو يحدّثني عن فكرة الحياة والخلود والزمن لدى أسلافنا – الرافدينين الأوائل.. كنت أستمع إليه ذاهلة وأتحوّل إلى تمثال من قمح وماء، تمثال من تمر ولبن وأسيل نحو أسلافي في قارب قصب، أسيل مثل الدبس الحلو على مسافة الزمن.. عندما أحس بانسيابي من

بين يديه نحو الماضي. قال محاولاً كبح استجابتي السحرية لفكرة أجدادي:

– أمّا نحن يا نهال فقد أدركنا من بعدهم أنّنا لا نعبر الحياة إلّا مرّة واحدة، و نمضي نحو النهاية لا رابحين ولا خاسرين، نمضي عراة وعزّلاً كما أتيناها: لا نحمل سوى لوعتنا ورماد أحلامنا، ونترك للآخرين بعض ضوئنا الخابي، وأسماءنا التي لا تموت.

منذ سبع سنوات سمعت هذا، وتحوّلت إلى نهر من عصير التمر، وتسرّبت إلى باحة معبد قديم، فأسرع جواد يلمّني، يجمع دمي النخليّ براحتيه ويجمّده بالكلمات والحب والصبر ويعيد تشكيلي بمهارة صانع محب..

كنا ندرس معاً في قسم الآثار، ونملك أكفاً لها قابلية لمس الزمن، تتلمس نصوص أسلافنا المدوّنة على الحجر والفخار بينما تتوقف حدقاتنا على مدى ساعات عند نص سومري لا نعرف أهو رقية سحرية أم قصيدة حب، أم صك تملّك، عبرنا تلك السنوات باندفاعات عنيفة، وكنا نسرق لقاءات الحب ونضحك لحيلنا البارعة ومكرنا، ونسعد في ابتكار مباهجنا، كان في الحب ذلك التواطؤ العذب بين مخلوقين يصنعان أسرارهما وهما يخدعان اتجاه الرياح.

قمنا برحلات مع طلبة قسم الآثار إلى أور وبابل ونينوى وخرسباد، وزرنا معابد لا تحصى وتجوّلنا سنوات في قاعات متحفنا – بيت الأسلاف المكتظ بالعصور وقد غمرتنا انتشاءات الكشوف والامتثال للحب، كنا نمسك بالماضي –ماضينا السحيق – ونخفيه بين أضلعنا كنزاً لغدٍ قريب... في تلك الأيام الساخنة بدأت أسمع الأصوات تهبط من أعالي المسلّات التي تتوّجها الآلهة والملوك ورموز الأسماء، وظهرت أولى أعراض الدوار والخدر والرعشة الغامضة.

خيّل إليّ أنني أسمع تنهدات التماثيل السجينة وتوسّلاتها وهي تستنجد بي لأنقذها من أسرها الأبدي داخل أجساد الحجر وأحسّ بأذرعها تمتد إليّ، وبأصابعها الباردة تنغرس في لحمي، عندما أفضيت لجواد بما أحس وأرى وأسمع، وقف لبرهة صامتاً وأخذ يدي في يديه ونظر إلى وجهي مستغرباً، ومتفرساً في ملامحي كأنه يراني للمرّة الأولى أو كأنّه لا يراني قط..

لم يقل شيئاً، وأطرق ثم أحسست بيده تقبض على يدي، تضغطها بقوة، ثم علت وجهه ابتسامة مبهمة وقال: لا تقولي هذا لأحد، قد تكون في الأمر مبالغة ما، لعلّك متعبة؟ ألست متعبة يا نهال؟.

– إنّني أسمعها مثلما أسمعك.. أسمع تراتيل وتنهّدات وتوسّلات.. ربت على كتفي مثل أب عاقل لم تجدِ حكمته مع حماقة ابنته الصغيرة، قال بحزم: انسي الأمر.. انسيه..

وبعد تخرّجنا اختار جواد العصر السومري الحديث موضوعاً لأطروحة الماجستير وحدّد عصر "جوديا" حاكم لكش وبدأ بدراسة رقمه الطينية وتماثيله وما تبقّى من معابده في لكش..

وجمعت المادة الأولية لأطروحتي عن "أشكال عبادة إينانا– عشتار السومرية – في بلاد الرافدين" وبدأت وطأة الدوار والخدر كلما دخلت المتحف أو مكتبته لأعمل، وانصرف جواد إلى جوديا وصارا يتسامران مثل أي رجلين، ويتبادلان الود والطرائف والوعود والأسرار.

ولاحظ الجميع حالات هذا المرض اللعين الغامض. والنوبات الحادة التي تنتابني وأنا أتحرك داخل قاعات المتحف ومكتبته. وعرضت نفسي بناء على مقترحات البعض على طبيب ولم ينفع ذلك في شيء..

وعندما وَهنت قواي تماماً لتكرار النوبات ارتأى جواد أن أمتنع عن زيارة المتحف ومكتبته.

– وعملي في رسالتي؟

– يمكنك انجازها في البيت..

– هذا أمر مستحيل.

– وإذاً عليك أن تختاري بين أمرين: نيل الدرجة العلمية الذي قد يفضي بك إلى الانهيار أو الاحتفاظ بما تبقّى من قواك لتواجهي الحياة اتركي شؤون الأسلاف لي وحدي.. ألا يكفي أن يرحل أحدنا إلى تلك الأزمنة البعيدة ويبقى الآخر مقيماً في هذا الزمان؟..

كان اتخاذ القرار صعباً، وغطّت وجهي هبّة من الرماد عندما سكبت الماء على جمرة الحماس، وتوقفت عن العمل، لا بل أسرعت مدفوعة بحاجتي إلى المال وخائفة من تراجعي – إلى العمل مدرسة للتاريخ في إحدى ثانويات البنات وألقيت بنفسي وسط غمر راكد من روائح وأجساد وثرثرة وأحزان النساء، حشد من المدرِّسات اللائي تحوّلن إلى صيغ حياتية ثابتة مكرّرة، تتشابه تشابه التوائم: مهارات محدودة، تطلعات فقيرة وطموحات مكبوحة، مع تردد شبه منتظم على المنجّمين وقارئات الكف وانتظارات عميقة لعرسان لايأتون أبداً، وفي البيت الأنثى الأخرى الخرساء الجميلة، أمي، صمتها يملأ رأسي بالهواجس والصرخات، ما كنا نتحاور إلّا بالنظرات أو البسمات وربما بالتنهدات ولمس اليد والقبلات والدموع، كنا امرأتين تكثّفان رائحة الأنثى وأحزانها في بيت الصمت، فتصير الرائحة والحزن مزية تدلّ علينا وعلى وحشتنا ومرّت أيام طويلة راكدة افتقدت فيها المتعة العظيمة التي كنت أجدها في أجواء عملنا المشترك أنا وجواد خلال تنقلاتنا

بين الكلية والمكتبات والمتحف والمدن القديمة، وصرنا لا نلتقي إلّا نادراً بعد انشغاله بأطروحته، وربما يمر أسبوعان دون أن يرى أحدنا الآخر.

وذات مساء هبط علينا جواد مثل ضياء قادم من قلب النهار، وفرحت أمي وارتبكت لفرط سعادتي، جلس قرب أمي وأخرج من جيبه علبة صغيرة فتحها فالتمع من داخلها خاتمان من ذهب وسلسلة تتدلى منها لؤلؤة بحجم حبة حمّص محفوظة في شبكة من أسلاك الذهب.

قال لها بطريقة بارعة: أهلي يباركون، وسيأتون قريباً، ولا أظنك تمانعين..

وقبل أن تجيب بهزة رأسها نهض وقبل جبينها، والتمع خاتمه في إصبعي وتدلّت سلسلته حول عنقي بثمرتها البراقة الكاملة الاستدارة..

همس لي: أنت تحبين اللؤلؤ لأنّه يمتلك ماضياً حيّاً في أعماق الماء..

أعرف أنّك لا تحبين الأحجار الخامدة المنحوتة.. يالؤلؤتي...

قال: نهال، أنا مضطر إلى السفر سألاحق "جوديا" في متاحف الدنيا وعندما أنجز عملي وتناقش رسالتي نتزوج، آمل أن أكون جديراً بانتظارك..

ولم أقل شيئاً، كنت مزهوة وكسيرة الفؤاد..

قال: أحبك أكثر من أي أحد في هذا العالم. وستنتظرين عودتي وأظنني أستحق بعض عناء الانتظار، ألا أستحق فعلاً؟..

– من لي سواك في هذه الدنيا؟.. ولكنّني أخشى أن تعود فتجدني قد ذبلت وعدت لا أصلح لشيء..

انحنى عليَّ وقبّل جبيني بحركة اعتذار وامتنان محاولاً بثّ الطمأنينة في قلبي.

بكيت، أراد أن يعوّضني بالعاطفة الحاضرة عن حرمان آت، نظر إليّ بتولّهٍ واستغفار وفكّرت: سأفقد "جوادا" بعد أن تنازلت عن مشروع حياتي - أطروحتي.. وقلت لنفسي ستعتادين الانكسارات والخسائر.

وتخيّلته يبتعد عني، ورأيته يطوف شوارع مسكونة بالضجيج والزحام ويداه تجوسان على حجارة التماثيل، أو تتلمّسان يداً ذات بشرة بيضاء باهتة وتعلق بثيابه عطور وقحة وتحط على جسده أصابع غريبة تجهل الحنان ونبل المحبة الصافية...

بعد رحيله بأسبوعين اثنين وصلتني أولى رسائله وتتابعت الرسائل من كل المدن. كانت في الرسائل شيء من تلك الروح السرية التي ربطت بيننا وجعلتني معه جميلة ومحبة ومحبوبة، ورغم أن الرسائل كانت حافلة بأنباء جوديا وتفاصيل عن تماثيله ونصوصه إلّا أنّني عثرت على الخيط السرّي الذي أحياني:

"نهال... التقيت جوديا في متحف اللوفر، متعبداً أو جالساً، وحزنت من أجله وهو أسير هذه الوقفة الأبدية، يتطلع بكبرياء ونوع من الملل إلى وجوه الغرباء ويحاول إخفاء أحزانه في صلابة حجر الديوريت الأسود..

لا يمكنك يا نهال تصوّر السحر في تشابك يديه الرقيقتين إلّا إذا تأمّلت يديك أنت، يدي العاشقة بأصابعها النحيلة وعروقها المتوفزة وأظفارها المنمقة الناعمة، اليد الحساسة المدركة التي تجيد البوح والكتمان والرغبة والتردد والصلاة..

يدك أنت لا اليد البدينة الثقيلة الخامدة، إنّ لجوديا يدي عاشق عابد ورجل حزين أحبّك فيه: أنا وهو غريبان في مدن غريبة.. أحبّك... "

"نهال.. وجدته سجين متحف (كارلزبورغ) في (كوبنهاغن) فكان مهموماً رغم وقفته الشامخة في وحشة البلاد الباردة...

وفي متحف (برلين) بكيت أمامه وهزّتني رعدة الخوف والأسى، وأنا أرى جوديا شاباً، تفيض قسماته بالأمل، أحسست أنّ شيئاً ما يشدّني إليه، سراً ما.. لا بدّ أن أجهد للكشف عنه.

نهال.. هي جولات تمزّق القلب، التقيت جوديا في المتحف البريطاني، حاسر الرأس خاشعاً يفيض وجهه بالضراعة لآلهته، رأيته وقد ازداد غموضاً، وشاخ، وتغضن جبينه ونحف وجهه، أضفت فصلاً جديداً للأطروحة – سرّ حزن جوديا – وسبب انتشار تماثيله في معابد لكش وضواحيها، إنّه يتحداني فساعديني باصطبارك للوصول إلى كشف السر حتى لا يطول انتظارك وعذابي.. "

ومرّ عامان وجواد ينقب في المتاحف عن سر جوديا وانغمرت في حياتي الممتدة مابين مدرسة البنات وبيت الوحشة والانتظار، وكان العمل يفضي بي إلى التعب الذي يطرد أرقي ويجعلني خامدة مثل جذع نخلة مقطوع اتخذوا منه جسراً للعبور..

عاد جواد، وقد تحوّرت ملامحه حتى أصبحت شديدة الشبه بملامح جوديا، خِلّه وصفيّه الوحيد، لطول ما حدّق في وجهه واتّخذ سيماءه، واستنطقه وتقمّص أحزانه المجهولة.

عانقني، وكان تمثال الحجر يقف بيننا بكل صلابته وجبروته البارد.

وعاودني الدوار: بكيت..

حدّثني عن رحلته الطويلة، وهو يحاول ردم هوّة الفراغ القائمة بيننا..

قال: سأعوّضك أيام الانتظار، ما عليك إلّا أن تلهميني القدرة على العمل لأُنجز الأطروحة فنتزوّج، من دونك لا يمكنني إنجاز شيء..

أنت تدركين مدى حاجتي إليك...

لم أقل شيئاً.. كان يحاول استرضائي بإضفاء الأهمية على وجودي معه: أهمية خاصة، ليس لحياته وحبه، بل لعمله – أنا أداة مساعدة، تكميلية لايمكن أن تفعل شيئاً بمفردها!..

وجرحني هذا الاستعداد المدروس لإغفال طموحي وإهمال روحي المضطربة والصمت عن أطروحتي التي فتّتني التخلّي عنها. صرت امرأة عصابية تقف على حافة الغضب والبكاء كل لحظة، أدّعي الرضا والانسجام وأزيّف وجه عذابي فيأكلني هذا التزييف، ويمضغ عظامي، ويأتي جواد ليمنح صورة المرأة المنتظرة لمسة من الإلهام (تنفعه) في إنجاز عمله..

قال: نهال سنعيش في فردوس حقيقي متى ما تزوجنا سيظل الحب نضراً حتى بعد شيخوختنا وسآخذك إلى كل المدن وأريك أعظم المتاحف والكنوز..

قاطعته بصبر نافذ:

– ماذا أفعل بمتاحف الدنيا؟ أريدك أنت، ها هنا على هذه الأرض بين معارفنا من البشر، أنظر لقد أصبحت امرأة مثل الأخريات، وما الذي تنتظره أولئك الأخريات؟ لا شيء سوى رجل يعوّضني خسارة الحياة وفداحة التخلي عن الطموح.. فهل ستفعل؟. هل تعدني بهذا !..

ووقف الرجل حائراً أمام هذه المرارة ورنّة السخرية الخفية في صوتي، وكعادته ربت على كتفي كأنه يسترضي طفلة غاضبة، ولكنه عندما اقترب مني ولثم جبيني شعّت منه الرائحة الغريبة، رائحة اللبلاب البري، الزهرة البيضاء المزرقّة الرقيقة التي يفوح شذاها الوحشي الساخن حين تسحق بين الأصابع، يقول المهتمون بالأساطير إنّ هذه الرائحة تميّز الشجعان من الرجال والذين يكتنف حياتهم الغموض والشجن، وأولئك المرصودين للمصائر الغريبة.. وأنساني هذا الانغمار في الفكرة الشفافة ألمي: وعادت الشمس إلى روحي..

في الليالي وبعد نهارات التعب، أفتح نافذتي لليل والظلمة الباردة، أجلس وحدي أرقب حدوث شيء، ليس لي من أحدّثه: أمي خرساء وجواد يتحدث إلى "جوديا" أتذكّر أحداث حياتي، كنت شهاباً تألّق واحترق، وها أنا ذي الآن نيزك بارد مطمور بالرماد، علّمت طالباتي الثبات وقلت لهن: لا تتراجعن، وجع الاستسلام أشد أوجاع النفس.

كنت أقف أمام النافذة وتخترقني سهام من الأشذاء والأصوات الداكنة، وفي السماء أمامي كانت النجوم، الآلهة تحيك مصائر البشر وتقذف بها في صخب ساخر مثلما يلعب الصبيان بالكرات الصغيرة..

أمي عاجزة في خرسها: هي جميلة لكنها عاجزة: وأنا أملك صوتي، فهل تجنبت العجز؟.. ما الفرق: أنا كرة صغيرة تتقاذفها الأفلاك وتلقي بها في المجهول... وأسمع جرس الهاتف، ويأتيني صوته في منتصف الليل، أتخلّص من براثن النجوم و أنياب الظلمة والصمت وأهرع إلى صوته، أريد صوتاً، صوت رجل أحبه يكفيني في الليل، عندما سمع تهدّج صوتي وانبهار أنفاسي سألني: علام تلهثين أكنت تركضين بين غرف البيت؟.. أكنت تنظّفين زجاج النوافذ كعادتك؟..

– جواد... جواد...

– إسمعي توصّلت إلى حلّ لغز الرقيم الطيني... أنت تعرفين طريقتي في مضاهاة الرقم مع بعضها.. إسمعي لقد استغرقني ذلك الأمر أسبوعاً بأكمله ، أنا الآن سعيد جداً.. ذلك يشكل فصلاً كاملاً في الأطروحة، قلت لهم في الصباح، لا يحل لغز رقيمكم الجديد سواي، تعرفينني جيداً أنا أهل للتحدّي والفوز..

وكنت مثل من يهبط من فوق جناح نسر إلى الأرض: كنت أهوى إلى التراب وحولي أوراق الشجر ونتف الغيوم والأشذاء واليراعات وبقايا صوت رجل أحبّه: أحرف متفرقة فيها شيء من رقّة، أحرف شفافة كان الحب يخترق شغافها، عندما انتهى الحديث عن الرقيم والنص السومري تمنّى لي ليلة سعيدة بصوت صلب وحروف متماسكة وعاد إلى "جوديا" ... وهجرني..

وبعد أن نوقشت أطروحته، وأعلن أنّه لم يتوصل إلى كشف سر "جوديا الحياتي" الذي تتبعه خلال عامين اقترح أستاذه أن يضيفه بعدئذ في صورة ملحق إذا تم له الوقوع عليه.

قبل أن يباشر عمله في قسم السومريات بالمتحف كانت الحرب المروعة على حدودنا الشرقية قد دخلت عامها الثاني فأخذوا جواد إلى جبهة الكوت، اقتنصوه مثل طريدة، وترك جوديا بسلام بين يدي..

قال: نهال نتزوج في الربيع، في أول نيسان عيد "اكيتو" رأس السنة العراقية القديمة، آخذك إلى معبد قديم، أمسح رأسك بزيت طيب، ونركع معاً أمام إينانا المعظّمة..

نظرت إليه: هذا الطفل الغريب ذي التحولات سرعان ما يتحوّل من رجل صلب إلى غيمة شعر، هذا الطفل الولوع بالعمل سرعان ما يتحوّل

إلى مخلوق أسطوري يعايش الأزمنة كلّها ويمزج بينها في براعة، يتحدث عن الحب والحرب بنبرة واحدة: فعلان متضادان يصنعان الحياة والتاريخ الدموي، معركة بعد أخرى يقترب من "جوديا" الذي صدّ عدوان ملك "أنشان" في بلاد عيلام وانتصر عليه.

وفي لحظات كثيرة يختلط وجها الرجلين أمامي: وتمتلكني الحيرة: كيف سيتدبر هذا الرجل أمر حياتنا المقبلة وهو جوال بين الأزمنة؟.. بعد الحرب تحوّل الرجل إلى صوت، وشجرة، وطائر، وغيمة، أصبح عاشقاً شفافاً وحزيناً، قبلها كان رجلاً مثل كثير من الرجال: وكنت أسمع الصوت، واعانق الشجرة، وأتبع تحليق الطائر، وأنتظر معه الغيمة:..

في إجازته الأخيرة سلّمني مسودّة الأطروحة.

– ننشرها يا نهال، وإذا توصّلت خلال هذه الفترة إلى شيء جديد نضيفه، وإلّا فإنّه سيكون ملحقاً نطبعه بعدئذ مستقلاً، اسمعيني ستتابعين مراحل طباعتها تهتمين بالهوامش والمصادر اهتماماً خاصاً.

– عندما تعود بعد شهر سنصحّح بروفات المطبعة معاً.

– أتراك جننت يا نهال؟.. هل آتي من جبهة الموت لأصحِّح بروفات المطبعة؟. أظنّك لم تدركي بعد معنى أن يعود جندي عاشق من الموت.

– بل أدركه..

– وإذاً سآتيك في كل مرّة جندياً حيّاً قادماً من جبهة الموت.. فلا تفاجأي بشيء.

وحمدت الله في سرِّي، لقد تحوّل جوديا إلى مخطوطة فحسب، وهو الآن بين يدي، ذكرى لماضٍ عظيم ورمز لحضارة سومرية نادرة.

نظرت إلى وجه "جواد" كان قد امتلأ بأشياء جديدة مصنوعة من الحنان والرغبات والشوق والقوة وبعض الشجن، كانت إيماءاته وكلماته وحركات يديه كلّها تنمّ عن سويّة روحه وقوّته: رجلاً تتمناه النساء، في داخله نبع من الضوء، عرفت بشراً في صدورهم جدران مظلمة وجلود متقرنة مثل دروع السلاحف، ترتد عنها الأحزان والأفراح واللذات: قلت: هذا الرجل جدير بحبي.

– نهال: في الجبهة ونحن بين أحضان اللهب وينابيع الدم والصهير ودمدمة الانفجارات، ليلاً ونهاراً كنت أسمع صوتاً يأتيني من مكان وزمان سحيقين، يقول لي: لا تدع أحداً يخرّب معابد لكش ولا غريباً يدنو من أسوار سومر، واحفظ بلاد سومر من كل سوء، عُدْ حيّاً من حافات الموت لتقول سرّ جوديا... "

وكان النداء يتكرر مرات عديدة، ويرافقني صدى الصوت العميق وأنا أواجه الموت والجثث في كل مكان....

أحضرت أمي الشاي الفواح بعطر الهيل، والكعك البيتي المحشو بالتمر واللوز، رشف جواد قدحه بسرعة وفي جرعات متتالية ونظر إليّ وهو مأخوذ بجمال ثوبي الحريري الأزرق: هل تريدين أن نخرج؟

نهال ما أروعك في هذا الثوب، نهال عديني إذا متّ فلا ترتدي ثياب الحداد، وعيشي الحياة كما تأتيك فليس لنا سوى حياة واحدة نخرج منها لا رابحين ولا خاسرين، بل عراة وأنقياء..

واحتضنت رأسه وضمَمته إلى صدري وغمرتني رائحة لبلاب الحقول فبكيت.. لبثت برهة أخفي الوجه العزيز الذي عبرته النبوءة، وأحاذر النظر في العينين اللتين ارتسم على حدقتيهما الغد..

أحسّ جواد باختلاج صدري في البكاء. قال: وعلام تبكين؟. ها أنذا

بين ذراعيك، ليس من إنسان: مخلّد في هذه الدنيا، هيا امسحي دموعك ولنخرج.. هيا اسدلي شعرك.

وأخذ ينتزع مشابك الشعر ويمرّر أصابعه بين الخصلات بحركات تنقصها المهارة، أحسست بالنشوة والخوف، وهو يقبّل رأسي فاختطفت يده ولثمتها بلوعة ثم ضممتها إلى صدري..

قال: اسمعي يا نهال يبدو أنني لن أطيق الانتظار حتى نيسان لنتزوج، إنسي عيد "اكيتو" البابلي. إنسي هوسي السخيف بطقوس الماضي وأعدّي نفسك لنتزوج بعد شهر، في كانون الثاني....

وبعد عشرين يوماً جاءني جواد وقد سكن الصوت وتمدّدت الشجرة وغفا الطائر، وفرغت الغيمة: جاء شهيداً قتل في انفجار قنبلة قرب الموضع: بكيت بدموع من رحيق، كنت الثمرة التي يعتصرها الموت فيسيل عصير روحها دمعة، دمعة، حتى تجف، أصبحت جافة: لا دموع.. وخاتمه يضئ عتمة يدي الحزينة، ولؤلؤته تتدحرج على صدري مثل آهة بيضاء ورغبة ضائعة.. رغبته هو التي تتدحرج لامعة فوق روحي: صلبة ومدورة ومحفوظة في شبكة ذهب مختومة باسمه.. بعد أشهر هدأت لؤلؤة الحب واستقرّت بين عنقي وصدري: نهضت وتابعت نشر أطروحته وفي الذكرى الأولى لرحيله صدر الكتاب:

"جوديا أمير لكش وعصره الذهبي"

أخذت النسخة الأولى وذهبت إليه، كنت قد زرعت خلال أشهر صمتي حديقة صغيرة حول قبره من شجيرات الآس والجوري وكنت أخشى أن أهمس له بشيء: هذا اليوم سأحدّثه بكل ما يعنّ لي وسأنصت إلى صوته: سينهض صوته، إنني أسمعه: أسمعه...

قال – نهال اذهبي إليهم لقد عثروا على التمثال الذي يحمل نصّاً يفسّر سرّ جوديا..

أفقت من الذهول بغتة، واعترتني رعشة سماع صوته الأخضر اللين، تلمست اللؤلؤة بين صدري وعنقي، كانت دافئة ومترجرجة كأنها تنبض.

بعد أسبوع من زيارة المقبرة قررت أن افعل شيئاً، سأزور المتحف مصطحبة طالباتي، كنت أخشى الذهاب بمفردي بعد تلك القطيعة، ولكن نداء جواد الذي جاءني من وراء الحياة أشعل حماستي، وعندما اقتربت من المتحف أحسست أنني أدخل في متاهة حلم. وأتحوّل إلى مقطع من أسطورة..

الآن.. وأنا واقفة أمام التمثال.. أحسّ أنّ يده القوية الجناح – الغصن – الغيمة تأخذني، فأغمض عيني وأتلقّى قبلاته الصغيرة المتتابعة مثل حبات المطر..

– أنت جوديا أم جواد؟ هل أنت أنت؟. هل أنت هو؟. أم أنك الرجلان معاً؟.

انهمر نور المصباح الكشاف عليه واخترق حجارته البيضاء الصقيلة، أحسست أنه يضرم النار في أعماقه. فيتحوّل الحجر الأبيض إلى وردي فأرجواني، ثم إلى لون جلد حي بشري وبغتة تذكرت طقوس الأحياء "شعيرة فتح الفم" التي كان يمارسها أسلافنا لجعل الروح تسري في تماثيل الآلهة والملوك في المعابد...

فتح الفم وإضاءة العينين وقراءة الرقى، ثم مسح الوجه بزيت السمسم وسكب الرحيق بين الشفتين المنفرجتين. عندئذ تسري الحياة في الحجر. وعندئذ تنهمر الدموع من عيني التمثال وتتحوّل إلى جواهر

نفيسة، كان أسلافنا يؤمنون أنّ ذرف الدموع فعل إنساني سام: يحيل الحجر إلى مخلوق حي.. وعند ذلك كان التمثال الحي يغادر المعبد ويهبط إلى المدينة ليتزوّج إحدى فتياتها فتنجب له ابناً سماوياً، قد يصبح بطلاً عظيماً أو ملكاً أو معبوداً مقدساً..

ارتجف النور للحظة كأنما أدرك غرابة المعجزة وخيّل إليّ أنّ الشفتين تختلجان تحت رعشته، سكبت في يدي شيئاً من عصير التفاح ووضعته بين الشفتين ودهشت إذ جفّ العصير واختفى. كررت الأمر فامتص الرخام الرحيق كله، وما أن لمست الوجه أحسست بحرارة أعرفها: حرارة الرجل الذي ضممته إلى روحي، ورنت إليّ عيناه بنظرة بشرية وتوقف من حولي الزمان.. وبكيت..

– لم أمت ولم يمت اسمي.. فعلام تبكين أنت وعلام تغرقين الأرض بالدموع؟

– من أجل ذلك أبكي..

– فلتفرحي، وليهنأ قلبك...

– وتراجعت إلى الوراء.. عدوت في القاعة مثل ممسوسة، وعندما التفت إليه رأيت المعجزة: إنه يذرف الدموع في البيت لم أبكِ قط، بل تفجّرت في نفسي أفراح غريبة، ساخنة، كأنها شعلات متتابعة تشبه ألعابنا النارية الصغيرة التي نسميها "عين الشمس" أو "نثار النجوم" وعندما نظرت إلى وجهي في المرآة وجدته مضاء وجميلا وتذكرت كل شيء: كان على شفتيّ مذاق قبلات قديمة، وعلى ذراعيّ لمسات أصابع خضراء، ولمسات من جمر ولمسات من رحيق...

ارتديت قميص نوم بلون الزمرد أخضر مزرقاً، وربطت شريطيه على الكتفين. اشتريت هذا لعرسنا، ولم ألمسه من قبل: عندما تدلّت

اللؤلؤة على اللون العشبي سطعت، وترجرجت: كانت غضون حزني والشعرات البيضاء في سواد شعري تذكّرني بمرور الزمان عندما نسيته وأنا أرتدي قميص نوم العروس. قلت لنفسي.

– لا تزالين جميلة يا نهال.. هذا العنق والصدر والكتفان هذه العذوبة التي يرقرقها الحب حولك..

أسدلت شعري مثلما كان يريد.. وفتحت رسائله ونثرت حولي أوراقه ومسوداته وهداياه الرائعة وجلست وسط بستان الماضي مثل شجرة آس خضراء لها زهرة واحدة لؤلؤية.. قرأت كلماته الحية، لمست الأوراق، التي قبضت عليها أصابعه، وبكيت عندما هبّت عليّ رائحة اللبلاب، يا إلهي رائحة اللبلاب مرّة أخرى... واختلج جسدي وتصاعد الرحيق إلى فمي: عندئذ فُتح بابي، ودخل جواد ومدّ يده إلى وجهي ثم أمسك بيدي وأنهضني وعانقني، إنّه جواد، هذه رائحته وهذا قميصه المخطّط واصابعه.

– يا إلهي.. أنت.. جواد.. أنت؟..

– لا ترفعي صوتك.. اهدأي ياحبيبتي.

– من أين أتيت؟ ما أنت؟

– كنت في غاية الظمأ هذا الصباح..

– وسقيتك رحيق التفاح بيدي...

– أنت؟ أنت التي فعلت هذا؟

– ومن سواي؟.. قمت بالطقوس كلّها..

– لماذا؟ لماذا فعلت بي هذا؟.. ألأجل أن تفقديني مرة أخرى؟

– لن أدعك ترحل..

– بل إنني ذاهب فلا تدعي الأمل يضلِّلُك.. أنا ذاهب إلى هناك..

– أذهب معك..

– كلا... خذي هذه الأوراق ففيها النص السومري الذي توصلت إلى فك رموزه، سرّ جوديا، سلِّميه لهم، وإذا شئت أن تريني ثانية فلربما تجدينني في مكان ما.. ربما على رصيف المحطة أو على الجسر. أو قرب المتحف أو وراء المقبرة.. تجدينني في كل مكان.. والآن هيا اجلسي على السرير لأرى وجهك جيداً..

– نظرت إليه كان جميلاً بصورة لا تصدّق، قلت لنفسي هوذا جمال الموت، الجمال النهائي القاسي... الجمال اللامتغيّر... قال:

أنت الآن أجمل من ذي قبل.. أنت مذهلة يا نهال..

واقترب مني، اقترب: وقبّلني ولمس كتفي وصدري وضغطت أصابعه اللؤلؤة على صدري، وجرحتني خيوط الذهب الشبكية، كانت الرغبة المموّهة تتحوّل إلى حنان رقيق، ثم سرعان ما تنجلي فأشمّها وأستسلم لها...

وبعد برهة كنت أحلّق مع غيمتي وطائري في فضاء لامتناهٍ، لا عمر لي ولا غد.. وعلى شعري إكليل من اللبلاب واللآلئ ورائحة الرجل ورغباته تتوّج شعري.. وتحتي تنام الأزمنة، المتاحف والبيوت والصحارى والنهران والمعابد والنخيل..

عندما هبطت عند "فم الأنهار" لم أعثر على جدّنا "أوتانا بشتم" وفي الحقيقة لم أشأ أن أراه، فلست بحاجة إلى مشورته لقد عرفت أين هي نبتة الخلود – إنّها في الحب، تنبت في قلب يعمره الحب، لا بدّ أنّ

أوتانا بشتم كان نائماً عند فم الأنهار ينتظر في ضجر وصول حفيد قلق أو مغامر..

صحوت، كان رأس جواد على ركبتي وهو راكع أمام السرير..

قال: الآن سأرحل: أنجزت ما كان عليّ إنجازه..

وتشبثت به، وبكيت.

– الأمر ليس كما تظنين، فقد قدّرت السماء مصائر البشر واحتفظت بالخلود للآلهة وحدها...

– افرحي ولا تبكي وعيشي حياتك ولا تحزني فإنّما هذا هو نصيب البشر.. وداعاً.. لا يمكنني أن أبقى.. وداعاً..

عند الفجر، أفقت من غيبوبتي أنا أتلمّس بقايا حرارة على يدي وعلى جسدي فتعثرت أصابعي بالخدش الدامي الذي سببته لؤلؤته تحت عنقي، تناولت الأوراق التي وضعها على سريري وقرأتها.

"أنا جوديا، حاكم لكش، بفضل حكمة إلهي العظيم ننكرسو، وحّدت شعب لكش مثل أبناء أم واحدة وأدخلت الطمأنينة إلى كل بيت، هزمت أعدائي وجعلت نور آلهتي يحتوي الكون مثل عباءة، وجعلت صورتي "تمثالي" في كل أنحاء لكش ومعابدها لأقدّم ضراعتي إلى شفيعي الإله ننكيزدا لعلّه يردّ إليّ امرأتي المحبوبة نانشا التي نزلت في قارب البردي والقصب إلى العالم السفلي.. لعلّ لمسة من يد الإلهة "با أوو" تمسّها فتعود إلى الحياة...

نذرت نفسي لسلام سومر، فباركني إلهي ننكرسو ولكن حارس "ايرش كيكال" اختطف سيدة قلبي ، سينزل إلهي لعنته على كل من يمس أرض لكش ويدنّس جسد امرأتي المقدّسة نانشا سليلة الإلهة

بـاأوو. مثل مـاء الفرات انسابت من بين يدي وجعلت الحزن مصيري أنـا القوي خـادم سومر.. لن يفرح قلبي إلا إذا التقيت نـانشا. سأقيم الصلوات وأقرّب القرابين حتى تعود فتـأخذني في قـارب القصب إلى نـهر الحيـاة.

هُطول المطر كان غزيراً وأنا أتجوّل ما بين المحطة والجسر، كان القطار قد تحرّك، القطار النازل إلى الجنوب. من نوافذه أطلّت وجوه الجنود الملفوحة بالشمس والنيران والهلع، كانوا يساقون إلى مصير لم يختره أحد منهم ولعلّ أكثرهم لن يعود، وخُيّل إليّ أنّني رأيت وجهه بين تلك الوجوه الحزينة ولعلّني رأيت يده تلوح بالبيريه بين عشرات الأيدي الناحلة المرتجفة، ناديت.. ناديت لكن القطار كان قد مضى بالمساقين نحو الموت ..

ذهبت قرب المقبرة وتجوّلت قرب المتحف وعدت إلى الجسر والمحطة دون أن أجده، أكان يخدعني؟.. صوّرت النص السومري مع ترجمته واحتفظت بالنسخة الأصلية لديّ. واتجهت إلى المتحف. وقبل أن أذهب إلى الرجل الذي حدّده لي جواد دخلت القاعة السومرية فلم يصبني الدوار ولم أسمع شيئاً. نظرت إلى التماثيل والمسلات فكانت ساكنة في جمودها الأبدي، لم أرتعش ولم أتخدّر وعندما وصلت إلى حيث كان التمثال لم أجده.. كان قد اختفى، خشيت أن أسأل.. فخرجت مسرعة من القاعة ومضيت نحو الرجل الذي أرسل له جواد النصّ في مظروف طويل:

– هذا الظرف مرسل إليك من رجل يعرفك قال إنه يضمّ وثيقة هامة.

– هلا تفضّلت السيدة بالجلوس..

– شكراً.. أنا في عجلة من أمري، لا وقت لدي.

– ..

ومن غير أن أحيّي خرجت إلى الشوارع وسرت على غير هدى على مدى ساعتين، اختفى جواد وجوديا معاً، تجوّلت في الشوارع مثل عاصفة صغيرة، كانت مياه الأمطار تسطع وتعكس ضوء الشمس على العمارات والزجاج و وجوه العابرين، وفي السيارة التي أخذتني نحو المقبرة أحسست بالبرودة الرطبة التي خلفها المطر... عندما عبرت القبور إلى حيث حديقة الآس والجوري لم أجد القبر، كانت الشجيرات تشكّل سياجاً لمستطيل أرضي مكسو بأعشاب قصيرة يانعة تفتّحت بينها أزهار النفل البنفسجية الصغيرة، وتمدّدت عند حافات المستطيل نباتات اللبلاب طريّة نضرة الأوراق وقد امتدت عساليجها نحو شجرة التوت العتيقة... تقافزت القبّرات وهدلت الحمائم وتساقطت أوراق مذهّبة من الشجرة وأنا مستندة إلى جذعها المبلول، منهكة وحائرة، ومن بين الأصوات كلّها وصلني الصوت، أخضر ليّناً:

لم أمت ولم يمت اسمي لأني أحبّك.

لم أمت ولم يمت اسمي لأني أحبّك.

إشارات:

١- استعرت عنوان القصة - كما لا يخفى - من ملحمة كلكامش: "هو الذي رأى.. "

٢- "بو آبي" ملكة اور السومرية التي كانت تعرف حتى وقت قريب باسم "شبعاد" لخطأ في اللفظ السومري لاسمها.

٣- "ايرش كيكال" إلهة سومرية - اخت عشتار وحاكمة الجحيم - العالم السفلي - يشير سماع التراتيل هنا إلى بداية تداخل الازمنة وامتزاج حالتي الموت والحياة امام "نهال".

٤- جوديا "أمير أو حاكم مدينة لكش السومرية" ٢٠٦٠ ق.م.) أعاد لمدينة لكش هيبتها ومجدها بعد أن دمّرها الغزاة، شيّد المعابد الخمسين فيها وهيّأ لها حياة رغد وسلام وعدل، وانصرف جوديا إلى بناء حضارة لكش التي تميزت بازدهار الثقافة والفن والاقتصاد، وتعد تماثيل جوديا أروع ما ورثناه من فن النحت السومري على الإطلاق، ويشبّه المؤرخون جوديا بالامبراطور الروماني "ماركوس أورليوس" في فلسفته وفكره وازدهار عصره.

٥- إينانا - الاسم السومري لعشتار ربة الخصب والحب والحرب - والأمومة في احيان اخرى. سيدة النواميس الآلهية عبدت في كل مراكز الحضارة في وادي الرافدين والمناطق التي تأثرت بفكر وحضارة العراقيين.

٦- يعني اسم "سميراميس" فيما يعنيه "الحمامة" حسب رأي المؤرخ "ديودورس" محرّفاً عن اللغة الأمورية - السومرية القديمة، وهي الملكة الآشورية العظيمة التي دارت حولها أساطير كثيرة.

٧- "اكيتو" عيد رأس السنة الجديدة في العراق القديم يقع مابين

نهاية آذار والأسبوع الأوّل من نيسان: تتلى خلاله قصة الخليقة "اينوما ايليش".. حيثما في العلى... وتقام طقوس الزواج المقدس بين الملك ومن تمثل الربة عشتار من الكاهنات وينهض "دموزي" تموز من موته وتأتي مواكب كل الآلهة من الموت لتشارك في عيد عودة الخصب والحياة إلى الارض.

٨- يتحدث البروفيسور "ليو أوبنهايم" في كتابه "العراق القديم" عن شعائر "فتح الفم" والإحياء فيشير إلى ان شعائر معقدة وسرية كانت تقام لتحويل المادة الجامدة لتماثيل الملوك والآلهة إلى وعاء يستقبل الحضرة الإلهية، فكانت التماثيل - التي يتم نحتها غالباً في "محترفات" داخل المعابد، تشكل بأعين وأفواه مفتوحة كي تتلقى طقوس فتح الفم والإحياء التي يقوم بها الكهنة، ولا تشذ تماثيل جوديا عن هذه القاعدة، وكان الأسلاف يعتقدون أن التمثال بعد هذه الطقوس يتحول إلى هيكل يستطيع الاتصال بالآلهة والتخاطب معهم.

٩- فم الأنهار هو الموقع الذي يقيم فيه "اوتانا بشتم" الجد الخالد للبشر حسب ملحمة كلكامش وهو الذي روى للبطل كلكامش قصة الطوفان وأرشده إلى عشبة الخلود.

١٠- تتوزع تماثيل جوديا الآن بين المتاحف العالمية والمجموعات الشخصية لهواة الآثار، وهي تحف نفيسة لا تقدّر لأهميتها في فهم التحول الذي طرأ على النحت السومري في عصره الحديث. وللنصوص القيّمة المنقوشة عليها كما أنّها تقدّم صورة حية للحياة الحضارية والمفاهيم الدينية والفكرية في العصر السومري الحديث.

١١- النص السومري المنسوب لجوديا موضوع من قبلي راعيت في صياغته روح الأسلوب السومري . ١٩٨٥

أخوات الشـــمس الوحيدات

قبل عام وفي مناسبة لا أتذكرها، أطلقت علينا إحدى الصديقات تظرفاً - إسم "أخوات الشمس" فشاعت التسمية بين معارفنا، واعتبرناها أول الأمر إطراء لخصالنا واعترافاً منهم بتميّزنا، وظلّت التسمية الطريفة - التي تشبثنا بها - مثار اعتزازنا وتندرنا... !

وشغلتنا أحداث الدنيا ونسينا أشياء كثيرة ومن بينها ذلك الاسم، ولكن، قبل أسبوع حينما ألزمني المرض الفراش، اكتشفت أنَّ لبعض الناس ذاكرة لا تنسى، فقد جاءت إليّ صديقاتي حاملات زهوراً وفواكه وحكايا، وتحدثت إحداهن عن "أخوات الشمس" باعتبارهن ظاهرة حية، وسردت عليّ طرفاً شتى عن تصورات خطرت للبعض حالما سمعوا بالاسم: فقد ظنّه أحدهم اسماً لنوع من الزهور، بينما أعلن آخر أنه مصطلح فلكي، وقال ثالث إنّه اسم مجموعة من الجزر المستعمرة في المحيط الهندي، وأكد أنّها جزر استوائية ساحرة، تنبت فيها أشجار جوز الهند وتفوح من شواطئها أشذاء التوابل وزهور الأوركيد وقد حصلت على استقلالها منذ عهد قريب.. !

ضحكت من كل هذا، وضحكت من تلك السذاجة التي تحتفظ بها ذاكرة بعض النساء، وعجبت للسهولة التي يتقبلن بها أشياء الحياة، وأنا أرى ما آل اليه أمرنا نحن النساء الثلاث "أخوات الشمس" فبعد أن كانت لكل منا أمنياتها وأسرارها وأحزانها، اكتشفنا أنّ الأمنيات تساقطت تباعاً، وتلاشت، وأبقت لنا مزيداً من الأسرار الحزينة والأسى

الموجع، وومضة أمل تبرق أحياناً ثم تنطفئ أمام رياح الأحداث المتسارعة.

رحل الجميع عن البيت، رحل والدنا ولحقت به أمنا بعد عام ونصف العام، ومالبث شقيقاي أن تزوجا ثم خطفتهما الزوجتان ومباهج وأعباء الزواج منا، فسكن كل واحد منهما في أطراف المدينة بينما غادرت أختنا الكبرى مع زوجها إلى مدينة في الجبال وبقينا أنا وأختي سلمى مع الجدران والنوافذ والشمس.

وقبل أن يغادر الأخوة البيت، شهد بيتنا جلسات عائلية حفلت بالنقاش واللوم والدموع وذكر مآثر الوالدين ومحاولة الاستئثار بمظاهر الحزن التي ظنت أختنا الكبرى - لسذاجتها - أنّها تبرّر لها الحصول على حصة أكبر من الميراث، بعد كل هذا تقاسمت هي وشقيقاي الأرض الزراعية التي تركها، وأشياءه القيّمة: الكتب القديمة النادرة، ومجموعته من العصي والمسابح الثمينة التي جمعها خلال أسفاره، ولأجل أن نبقى أنا وسلمى في البيت، تنازلنا لأختنا الكبرى عن حقوقنا في كل ذلك وقسمنا حلى أمي وطرفها بينها وبين زوجتي أخوينا.

قالوا لنا: تقيمان في البيت حتى يحدث لكما أحد أمرين: الزواج أو الموت، ثم رحلوا عنا وتركوا لنا كل ما يصعب اقتسامه من الميراث: الحزن والوحشة ورائحة الألفة القديمة وأصوات الماضي.

غداة رحيلهم فتحنا النوافذ كلّها فاكتسحت الشمس البيت كله، فألفيناه واسعاً جداً، موحشاً جداً، مثل قلعة حراسة مهجورة تطل على النهر والتلال.

أحسست أننا نطفو مثل قطعتي فلين في فضائه، وتمسكت بالجدران،

ورأيت سلمى تتشبث بمقابض الأبواب، كنا مثل من أصابهم دوار البحر على ظهر سفينة تمخر بحراً عاصفاً من ذكريات..

أخذنا نثرثر لنسمع تردد صدى صوتينا في الفراغ، فكان الصدى يتكاثر لنسمع أصواتاً وكلمات لم نقلها قط، إنها أصواتهم تستيقظ في الزوايا ووراء الأبواب وفي طيات الستائر، كانت ضحكات أخوي، وسعال أبي، وهمسات أمي تجتاح ممرات البيت وتأتي لتحط على يدي كأنها الحمائم الضالة...

تملّكني خوف امرأة وحيدة، فقلت لسلمى: أتسمعين؟

وتظاهرت أنها تنصت إلي شيء، .. وقالت "كلا.. لا أسمع شيئاً"..

كانت تنظر إلى الشمس، وتقيس مسافة الظل الساقط على جدار مدخل البيت.

قلت: "كلماتهم وأصواتهم".

فلم تسمعني سلمى..

أخذت أنفض الغبار القديم الذي اختلطت به ذرات من أجسادهم الحية، مسحت الأثاث فمحوت طبعات الأصابع والأكف، كانت رائحة عطر ما بعد الحلاقة تملأ الحمّام، رائحة أخي البعيد، جرفني الحنين إلى وجهه الطيب، قلت: كلا.. وانشغلت بإعادة ترتيب البيت ولم تنته محاولاتنا من تغيير جو البيت إلّا بعد أسبوعين..

قلت: لسلمى: هاك بيتاً جديداً يليق بامرأتين وحيدتين، وضحكت سلمى وقالت: تغيّر كل شيء، لن يعرفوا البيت إذا جاؤوا لزيارتنا.

- سيعرفونه من رائحة الهواء الرطب الذي يأتينا من وراء التلال، ومن ضوء الشمس الذي لا يبرح غرفه حتى المساء.

في المساء كان فراق الإخوة يشحن ساعاتنا بدفقات من الحنين والعواطف الجياشة ويبللها بالدموع وندى الليل...

كنا منفعلتين ومتحفزتين لمواجهة كل الاحتمالات، فأمسياتنا الموحشة تتوالى، وفي الصباح لم نكن نشعر بالوحدة قط أذهب أنا إلى عملي في المستشفى وتتوجه سلمى إلى مؤسسة التصاميم الهندسية التي تعمل فيها، وبعد الظهر ننشغل بأشياء الحياة الصغيرة، وفيما تبقى من الوقت كنا نتحدث أو نعمل في مشاريعنا الأخرى أو تنفرد كل منا في غرفتها، لنبكي أو نحادث أنفسنا أو نحلم وما أكثر أحلامنا.. وذات مساء كنت أجلس قرب النافذة أتأمل العتمة تهبط فوق التلال وأرى أشباح العابرين في ظلال أشجار الشارع تسرع نحو كل الجهات، قالت لي سلمى:

- لماذا لا تفتحين "عيادة" في الشارع الجديد القريب من مركز المدينة؟..

ومن دون أن أنظر إليها قلت: كفانا خسراناً لأنفسنا أتريدين أن أمضي معظم ساعات يومي خارج البيت؟..

لقد جرّبت ذلك ولم أشأ أن أدمّر حياتي على هذا النحو.. لن أفعلها مرة أخرى... أنا متعبة.. متعبة..

وقالت سلمى بصوتها الأسيان:

- نحن نخسر حياتنا كل لحظة، سواء كنا في البيت أو خارجه غير أنّ العمل ينسينا بعض حزننا...

ولمست في صوتها رنة التفجع، إنّها تريد ذلك الذي تعرضه عليّ، وتشفق من معارضتي، وعندما جابهتها برفضي، آثرت الصمت وجلست ترسم تصميماً لمبنى حديث، كانت ترسم بيوتاً لأناس لا

تعرفهم وتضعهم وسط فضاءات مضيئة، وغرف رحبة وشرفات تطل على الجوار، كانت تغدق على تصاميمها علاقات تفتقدها في حياتها..

التزمت الصمت وجلست أتأمل هذه الأمسية الثقيلة وبدأ الليل يجتاح التلال ويذيبها في الظلمة هي والنهر والطرقات والأشباح..

– كل شيء يذوي ويذوب والزمن يجنح بنا نحو الأفول...

قالت سلمى: هذا ليس بالأمر الجديد..

وازدادت وحشتي عندما انصرفت عنّي إلى عملها، لم أكن لأرغب في عمل شيء: ما جدوى أن أنجز أعمالاً جديدة؟.. ما نفع كل شيء بعد الان؟.. سأظل امرأة وحيدة مهما فعلت، فعندما أنتهي من عملي أفيق على الحقيقة: ها أنا ذي أعود إلى وحدتي... لا أحد يشاركني بهجة إنجازي لعمل ما... لا أحد، ستمضي بي السنوات، وأصير عجوزاً وقد تذهب سلمى وسأظل هنا أرعى هذه الجدران وأرقب التلال والشمس الآفلة والنهر البعيد وأسمع أنين أبوابنا القديمة وتكسّر رغباتي...

كانت الليلة تنذر ببرد شديد لا شيء يدفئ أمسياتنا سوى بعض الكلام، وحتى الكلام صار مملاً... وأحسست أن الستائر ترتعش، لعلّها الريح.. أجل إنها الريح، وانسكب في صدري شيء ساخن مثل الدموع...

وبغتة سمعت شيئاً يحدث، لقد رنّ جرس الباب.. وقفزت وصحت: سلمى...

قالت: من يأتينا في هذا المساء؟..

استثارني صوت الجرس وأرعبني ولم أدرِ ما أفعل، ثم توجّهت نحو النافذة المضاءة مرة ونحو الباب مرّة أخرى، وتبينتها، إنها "أحلام" ابنة عمّتنا..

- إنّها هي.. لقد جاءت أخيراً.

واضطربنا وتعثرنا بالمقاعد، والمناضد، وببعضنا ونحن نسرع لنفتح الباب.. كانت أحلام قد عادت من خارج البلاد بعد إنهاء دراستها وعيّنت مدرّسة في أحد المعاهد الفنية، وعرضنا عليها أن تقاسمنا بيتنا بعد أن يئست من الحصول على بيت، ولم تطق العيش في بيت أختها...

وعانقناها، لم نصدق، وتلمّسنا ذراعيها وشعرها، ووجهها ومعطفها حتى لكأنها مخلوقة هابطة من السماء.. وأسعدها فرحنا بها، وقالت:

- ليس لي سواكما..

ومن بين دموعها قالت سلمى: نحن أختاك، وهذا بيتك.

وازدهر في البيت عالم جديد من الكلمات والعادات والألوان وسبحت في فضاءاته أصواتنا وتمازجت ضحكاتنا، وكان صوت سلمى الأمومي مثقلاً بالوصايا ورائحة الحنان أما صوت أحلام الواضح النبرات فإنّه كان صوت امرأة قوية تبدو لمن يراها سعيدة ولا تعرف الهزيمة قط..

وقد وصفت أحلام صوتي بأنه صوت شمسي: وقالت:

- هو صوت مضيء يبوح بكل شيء مرة واحدة وأضافت:

- ليس الصوت حسب، فعينا هدى لهما بريق شمسي يشف عن روح متأججة.

وإذا تنتابنا أنا وسلمى حالات كآبة إعتدناها، كنا نفاجأ بصوت أحلام ينطلق بأغنية قديمة فيمنحها عذوبة وحيوية توقظ في أنفسنا أفراحاً قديمة منسية..

كانت لدينا ثلاثتنا رغم أننا تجاوزنا الثلاثين أوهام كثيرة تتعلق بالحياة وخفاياها وأناسها وأحداثها، ورغم ما يبدو علينا من نضج

أضافته طبيعة أعمالنا، إلّا أنّنا لم نتخلَّ قط عن أوهامنا ورومانسيتنا، فكنا نرتطم بين يوم وآخر بالوقائع، وتصدمنا المفاجآت، ويصيبنا الناس بالخذلان. قالت أحلام: أنتما مثل نبات الميموزا: ما إن تمسّ إحداكما يد حتى تنكمش وتنغلق على عالمها الشجي..

وسألتني أحلام: ألا تخرجان قط بعد الظهر؟

قلت: نحن نحتمي بالبيت من العالم الخارجي، لا شأن لنا بعالم مابعد الغروب..

قالت: أمّا أنا فسأخرج أحياناً لإعطاء محاضرات لبعض طالباتي..

ثم ابتسمت وقالت بصوت محذر: كلما مر الزمان سيصعب عليكما التكيف مع الآخرين..

قلت لها: ستوافقينني ذات يوم وتتخذين الموقف ذاته.

وبعد شهرين تخلّت "أحلام" عن محاضراتها ولم تشأ أن تبوح لي بشيء عن الأمر.. وظلّت معنا في الأمسيات ثم شيئاً فشيئاً ورغم اختلافها الجوهري عنا أخذت تعتنق أوهامنا بحمية أنثوية فائقة، وصارت مواقفها تقترب من مواقفنا حتى تلاشت كثير من الحدود التي كانت تؤطر شخصياتنا، وهكذا عشنا، ثلاث نساء رومانسيات تخطين عمر الأفراح والأمل، واحتفظن بقدر من الجمال وعذوبة الشباب، واحتمين بحدسهن الفطري وفطنتهن لا بما علمتهن إياه الحياة وما اكتسبنه من خبرات في سنوات العيش...

وتميّزت بينهن بقوة الحدس والإلهام، وكنت أهتم بالقوى الروحية التي يمتلكها البشر، وأتلاعب بهذه النغمات على مستويات تروق لسلمى، وتعجب أو ترضي أحلام أو تثير فضولها وتوقظ ما سكن في الذاكرة من معتقدات غيبية.. وكنت إلى جانب هذا أكره أن أخدعهما

بشيء، وأبتعد عن الادعاء والغرور وأميل إلى ظلم نفسي بالتقليل من أهمية شخصي أمام الآخرين.

وعابت عليّ سلمى وأحلام نزوعي إلى هذا النوع من التواضع والتضحية من أجل الآخرين، حتى أولئك الآخرين الذين لا يستحقون نظرة من عيني كما تقول أحلام..

كانت سلمى أقربنا إلى الحياة اليومية، في التعامل مع تفاصيلها، وهي لا تتردد في الإعلان أمام الجميع أنها تتوق للأمومة، ولا تريد التنازل عن سنواتها لرجل غريب إلا من أجل مخلوق صغير رائع تنجبه للحياة..

كنت أشعر بالأسى من أجل هذا، أيّ حياة تتوق إليها سلمى؟.. ستنجب ابنة وتتركها وحيدة مثلنا.

وكنت أشد الثلاثة تناقضاً، أجدني مرّة أتجوّل في عوالم الفكر والروح، ثم لا ألبث أن القي بنفسي في أرض العواطف، باحثة عن الأزلي في كل شيء، مفتشة عن حلول لألغاز الحياة المحيّرة، وما ألبث طويلاً حتى أهبط إلى الأرض، وأسير مع عشرات النساء والرجال على رصيف مزدحم وجهاً متعباً بين الوجوه، أبحث عن شيء لا أعرفه ثم أشتري الصحف والخبز والبرتقال ومناديل الورق وفجأة تثيرني رؤية الزهور ويأسرني سطوع الشمس على أوراق الشجر المبلولة بعد المطر، وتبكيني أحزان الآخرين...

أمّا سلمى فكانت تغمر كل شيء تمسّه يداها بأمومتها بدءاً بنا ومروراً بالنباتات وانتهاءً بالقطط والعصافير وعندما نضيق بفرط عنايتها بنا ولا ينفع ضيقنا في شيء ولا تتخلّى عن استبدادها الأمومي تجاهنا نهيّء لها فسحة من أنفسنا لتلقي عليها ظلالها الوارفة.

كانت تسرع حال عودتها من عملها إلى إعداد وجبة طعامنا فإذا ارتضت معونة منّا ارتضتها على مضض وكأننا نثلم بذلك جدار هيبتها.

وتأخذنا الأحاديث إلى أشياء شتّى فتستجيب وتنصت وتناقش برصانة وعمق فإذا ما انتهى الحديث إلى الشمس أفاضت سلمى بالكلام عن أهميتها، وعن اهتمامها في تصاميمها بالفضاءات المشمسة وتأكيدها على أن تكون الشمس محور كل عمل تقوم به أو تصميم تُعدّه للتنفيذ.

وننصرف إلى شؤوننا الصغيرة، نكوي فساتيننا، نطلي أظافرنا، تصبغ إحدانا شعرها، أو تنظّف البيت، أو نجلس ثلاثتنا في الشمس، ندعوها لتجلس بيننا، نحتضنها ونحلم.. ونحلم..

وكنا نحمل لبعضنا إلى جانب المحبة نوعاً من الشفقة الأنثوية التي لا يعرفها الرجال قط، وهي عاطفة خاصة لا تنمو إلّا في الصمت والعزلة، وتزدهر خلال فترات الألم الدوري كل شهر وتنتعش بانتعاش المخاوف.

صار البيت ملاذاً لنا من كل مايحيط بنا، ملاذ أخوات الشمس "الوحيدات" بموقعه عند نهاية الطريق، ومواجهته للتلال المنحدرة. نحو ضفاف النهر وبسياجه القديم الذي تشابكت لديه شجيرات الياسمين الياباني المتسلّقة مع أشجار الدّفلى واللبلاب فحصّنته بنموها من كل اختراق.. سياج من المرارة - قالت سلمى - حتى شجيرات الياسمين مُرّة وسامّة، فلماذا لا نقتلعها؟ ورفضت: لو زرعنا ياسميناً عطراً ومتسلّقات زهر العسل لكان ذلك سبباً في اجتذاب النحل وفخّاً لاجتذاب البشر، قالت: سيقتلنا الخوف.

وأحسست أنّها موشكة على البكاء، لمست ذلك في نبرة صوتها المبلولة وفي احتقان عينيها.. ثم رأيتها تنصرف إلى عملها في رسم تصاميم البيوت المغمورة بالشمس بينما تقبع هي في قلعة النسيان، أمّا أنا فقد بدأت العمل في مشروعي حول علاقة الشمس ونشاطها الإشعاعي بسلوك المخلوقات البشرية، وكنت أدوّن النتائج كل يوم بعد قراءة البحوث والدراسات والقيام بتجارب ميدانية محدودة وكلما توصّلت إلى شيء جديد أطلع سلمى عليه. وأحرّضها لتشاركني اهتمامي وهوسي.. كنت أراها تطيل النظر إلى الشمس وأقول: لعلّها تبتكر لنفسها صورة رجل وتجسده لها انعكاسات أشعة الشمس بين أغصان الشجر والجدران والتماعات الزجاج وكانت تتركني بغتة، وتأخذ في يدها أدوات القياس وتصعد إلى السطح ثم تعود مسرعة، وذات يوم فاجأتني بنصب جهاز للتسخين بالطاقة الشمسية وحوّلت دفء الشمس إلى داخل غرفنا وأدهشني اهتمامها الجاد بالشمس فطلبت إليها أن تفكّر بتصميم غرفة زجاجية دوارة وغرفة شمسية - تقتنص كل إشعاع شمسي وتعكسه وتردده داخلها ونستخدمها في علاج حالات التوتر العصبي والإرهاق وبعض الحالات التي وجدت أنّ لها علاقة بنشاط الشمس.

وبعد يومين أطلعتني على الرسوم وبدأنا في تنفيذ مشروعنا كانت أحلام تمضي أمسياتها في كتابة قصائد متواضعة، تحتفظ بها لنفسها وكان واضحاً لديّ أنّها تعيش صدمة عاطفية منذ عادت من الخارج، وأنّها تتخلّص من آثارها بالتدريج.. وعندما أطلعناها على مشروعنا قالت:

- أيّتها الحالمتان، متى تهبطان إلى أرض البشر وتعيشان كما تعيش النساء؟..

ولم أعتبر ردّها مبرراً لرفضها مشروعنا، أخذت يدها فاستسلمت ضاحكة ومضينا نحو سلمى، وأبدت أحلام اهتماماً ساخناً بالموضوع.

قالت: أعاونكما كلّما وجدت متّسعاً من الوقت وستجداني معتكفة في غرفة الشمس بعد الانتهاء منها.. وبعد قليل، بدا الضجر على وجهها فقالت معتذرة، عليَّ أن أرتدي ملابسي لأخرج لدي قضية يجب أن أنتهي منها، واستغربت سلمى، فقالت في صوت مضطرب: يا أخوات الشمس، إذا أحبّت أيّ واحدة منّا رجلاً فلتحتفظ بالأمر سرّاً ولا تطلعنا على اسمه الا إذا أفضى الأمر إلى الزواج.

ونظرت إليها أحلام مستغربة ثم عمدت إلى إثارتها وردع تجاوزها:

– أما إذا خسرت إحدانا حبّها فعليها أن تنسحب من بيت أخوات الشمس لتجنّبنا حزنها القاتم ونتائج غفلتها، وسأكون أول من يفعل ذلك..

قلت: كلا، دعكما من هذا الهراء، في تلك الحالة ستكون في حاجة إلى من يقاسمها حزنها ويهوّن عليها فجيعتها وارتفع صوت أحلام حاسماً: ندع لها حرية اختيار الموقف الذي يناسبها، اتركا كل شيء لأوانه.

ولم تحظَ سلمى بأي شيء جديد عن أحلام، كانت تبغي الوصول إلى كشف جانب من جوانب شخصيتها فجوبهت بجدار عال من التحفظ المستتر خلف قناع المزاح: وأسرعت سلمى تدير مفتاح الراديو لتنهمر موسيقى خفيفة تضيع صدى الكلمات المتوترة.

قالت بصوتها المنكسر: ألا تشربان الشاي؟

ونهضت من وراء منضدة عملها وبحركة من حركاتها الأمومية البارعة أحاطتنا بذراعيها وقبّلتنا واحدة بعد الأخرى ولمحت التماع

الدمع في عينيها، أفلتتنا وانطلقت إلى المطبخ وعادت تحمل صينية الشاي وجلست أمامنا مثل أم تغمر بحنانها وغفرانها كل شيء حولها.

كنا مثل روح واحدة، نعمل ونتحرك ونبتهج بأسلوب متساوٍ، منغّم كأننا مقطوعة موسيقية شديدة العذوبة وكنا نعتني بالأشياء الجميلة، ونحرص على الجمال، حتى صار الجمال مثل روح رابعة تهيمن على جو البيت: أزهار ولوحات ونباتات وطرف.. ورغم ذلك فإنّ قلوبنا كانت تفتقر إلى المباهج الحقيقية لكنها تكتنز أحزاناً أصيلة وكبيرة ومن دون أن نعلن تملّكنا إحساس خفي أنّنا ضحّينا للمجتمع وأعرافه بأبهى سنوات عمرنا، لم نتساءل ماذا جنينا، بل كنا نذرف الدموع. دموع الأسف من أجل أقل الأحزان شأناً وفي أرواحنا تكبر الحسرات ونحن نرى الحياة حولنا، نرى ونتذوّق الجمال ونتوق إلى امتلاك المتع، لكنّنا نتراجع من أجل أن نكون نساءً مرضياً عنهن، أيكفينا ضوء الشمس وحده؟ كلا.. فكم من مرّة تاقت نفسي للنزول إلى النهر، كم مرّة خفَق القلب وأنا أسمع نبرة صوت رجل أهفو إليه؟..

كانت أحلام أجرأ منّا قليلاً، غير أنّها شديدة الخشية.

أراها تنظر عبر التلال نظرات غائمة وتتأمّل تدفّق المياه في النهر وتومض من عينيها التماعات الرغبة..

خلت أيامنا من كل المتع، ولم نعرف سوى العمل، ولنعوّض خواء ساعاتنا، كنا نكسو أجسادنا بملابس جميلة، ونصفّف شعورنا حسب مقتضيات الطراز السائد ونغالي في تنسيق البيت، وانفردت سلمى بيننا بِوَلعٍ بالغ بالطعام، أجادت صنع الأطباق الشهيّة وأقبلت على تناولها، وكانت شراهتها تشتد أيام ازدياد وحشتها وفي تلك الأيام الحرجة التي تسبق دورتها الشهرية. فأراها تلتهم مقادير كبيرة من

الطعام والحلوى حتى اكتشفنا ذات يوم أن جسدها قد امتلأ، وغدت أشبه بربة بيت منسية تمضي عمرها بين أطباق الطعام وفراش بارد لا حياة فيه، وعلى الضد منها كانت أحلام تزداد نحافة، فتقول سلمى:

– هي متعة متاحة لن أتخلّى عنها من أجل مُتع وهميّة قد لا تجيء.

ارتبطت حياتنا بإشراقة الشمس، فمعها كان يبتدئ نشاطنا كل صباح فإذا اتّفق أن حجبت غيوم الشتاء شمسنا ليوم أو يومين، نتكدّر ونرتبك وتغمرنا قتامة ثقيلة وعندما امطرت السماء وكنا ننتظر بنفاد صبر ظهور الشمس قالت أحلام:

– الشمس وحدها لا تجعلنا مورقات نضرات، أرواحنا بحاجة إلى الرحيق، ألا تفهمان؟ نحن بحاجة إلى تلك القطرات السماوية، روح الحياة، المطر...

وانكمشت سلمى وقالت: أخشى الماء... !

ورمقتها أحلام بنظرة استنكار وقالت:

– ستجفّين، وتجفّفينا معك..

وبعد قليل أشرقت الشمس فخرجنا إلى الحديقة واحتفينا بها.. وفاضت من أعيننا السعادة، وتدفّق من أصواتنا الحبور. كانت أحلام رغم عقلانيتها شديدة التأثر بالطبيعة ففي الربيع بدت منفتحة ولم أجدها إلّا متشبِّثة بشيء مما حولها، بالبراعم والأشذاء ورائحة التراب والطين والعشب الجديد، وعيناها تشعان بوهج غريب وعلى وجهها تعبير ملتبس يضلِّلنا لعلّه كان مزيجاً من سعادة واهنة وخوف ويأس ويوماً بعد يوم أصبحت لِكلماتها رنّة سحرية ولازمتها حالة التوهّج وأغدقت عواطفها علينا من دون تحفّظ فأيقنت أنها عاشقة بعد انصرافها لكتابة الشعر بغزار ة لم نعهدها فيها..

أمّا أنا الطبيبة الناجحة فقد انشغلت بمرضاي وأحزاني وحساسيتي البالغة تجاه الموت، وكنت عندما ينال مني التعب أبكي وعندما تثقل عليّ مشاعر الوحدة أبكي فتهرع إليّ أحلام وسلمى وتقرأ لي أحلام قصيدة جديدة بصوتها المنتشي فتنشر حولي روائح وأصوات الشجر.

كنت ألمس في كلماتها أنفاس حزن كبير وأضع يديّ على صورة حب مستحيل محاط بالمخاوف ومهدد بالنهاية الفاجعة. وذات يوم همست لي: أنت يا هدى تشبهين قصيدة شجية تشكّلت مفرداتها من قسوة وروعة الحياة، من جنون وحكمة الزمن أنت تمنحينني العزم وتحبطينني في اللحظة ذاتها..

كانت أقرب إليّ من كل الناس، من سلمى وأخوتي أيضاً ولم أتوصّل إلى معرفة شيء عن شؤون حبها، واحترمت رغبتها في الكتمان، ولكننا لفرط حبنا لها كنا نعتنق أحزانها ونبكي إذا همّت بالبكاء، وذات مساء اعترفت لي سلمى بإحساس كنت أتوقّعه:

- أتدرين يا هدى، إذا لم أقاسم أحلام حزنها أحسّ كأنّ جسدي أفرغ من دمه، أريد أن أتذوّق معها حزنها رغم أنها لا تشركنا في أفراح قلبها..

ونظرت إليها مرتابة، فرأيت شفتيها الرقيقتين تختلجان وفي عينيها بريق غريب واكتشفت ألماً خفيّاً في نبرات صوتها: إنها تتوق إلى تذوّق الحب الذي أفضى إلى كل ذلك الحزن والفرح.. لدى أحلام..

بعد أسبوعين من العمل انتصبت الغرفة الشمسية الدوارة على سطح بيتنا وبدأت تقتنص الضوء في دورانها وخُيّل إليّ أنّني أرى برجاً بلورياً مسحوراً سيقرّبني من تلك العوالم التي أنشدها..

وبعيداً عن كل ما عرفناه عن الشمس سواء في معتقداتنا أو مجادلاتنا العقلية أو الشعرية وجدنا أنفسنا أمامها وجهاً لوجه وما كنا نسعى لعبادتها، بل إلى تطويع بعض روحها الحارقة والاحتماء بها من أحزاننا الأرضية وخيباتنا ونتائج غفلتنا وحمقنا، إلّا أنّنا لم نكن لنعلّق مصائرنا بدوران النجوم...

كنا نريد أن تغير مسارات أيامنا بصداقة الشمس مستفيدات من كل ما تعلّمناه في الأرض مضافاً إليه ضوء شمسنا الجليلة.

التجربة الأولى: استرخينا ثلاثتنا في الغرفة وضغطنا محرّك الدوران، دارت بنا وببطء، ثم تسارعت فانهمرت علينا الشمس بغزارة سماوية وبدأت أجسادنا المتعبة تسبح في الأشعة الغامرة تمتصها وأحسست أنّني صرت خفيفة وشفّافة لا وزن لي وانفصلت عن الأرض والزمان، رأيت وجوهاً، رأيت ظلالاً تخرج من رأسي وبخاراً يتصاعد من جلدي.. وبعد قليل بدأت أحسّ بالراحة وزال التوتر وبارحتني الرغبة في البكاء، كان الضوء يسقط في أعماقي وكنت أغمض عينيّ على لحظة الراحة العظيمة.. ما ألذّها.. عندما أوقفت سلمى الجهاز الدوار ونهضت رأيت وجهها ووجه أحلام مبتهجين، قالت سلمى بحبور:

– ما رأيك؟

– أنت الآن مخلوقة أخرى، ترى كم يدوم. أثر الشمس في أرواحنا؟

قالت أحلام: مثل أيٍّ لذّة: سريع الزوال، ثم ما جدوى كل هذا؟..

– ألم تشعري بشيء أحلام؟

قالت: الدوار، ثم الاسترخاء، وأنت بِمَ أحسست؟ أجبتها، فدهشت لما سمعته، قلت:

– وبهذه الطريقة نخفّف بعض توتّر النفس الإنسانية وعذابها..
وابتأست أحلام وقالت:

– أَجادَّتان في هذا؟.. تقضيان على أحزان البشر بإشعاعات الشمس؟

ردّت سلمى: ليس كلّهم، بل أولئك الذين لم يذوقوا نعمة الله – الحب!..

واستفزّت أحلام فقالت: الحصول على الحب أيسر من بناء برج شمسي كهذا..

قالت سلمى: بل إنّ الحب الذي أريد أعزّ وأغلى من كل أموال الأرض..

قالت أحلام: وإذاً ما نفع هذه الحماقات العملية؟..

ولم تستطع سلمى صبراً: إنّها لمن لا يمتلكون البراعات الكافية للحصول على الحب، وان امتلكوا فهم لا يجرؤون على البوح.. أترين يا أحلام أنّ بوسعي إعلان حبي بطريقة لا تجرحني ولا تثير المقابل حين ألتقي الرجل الذي أبحث عنه؟ من يمنحني هذا الحق؟.. أنت؟ هو؟ أم الآخرون وتجاهلت نبرة التعريض بها وقالت: ورغم هذا فإنّ الحل لايكمن في غرفتك الشمسية قط..

وصرخت سلمى: كفّي عن تعذيبي.. وتوقّفي عن سخريتك، إن أصابعي تحترق وأنت.. وأنت..

ولم تتم عبارتها وأجهشت بالبكاء..

قلت: هوّنا عليكما فما لهذا جئنا، وما لهذا أقمنا غرفة الشمس..

ومضت أحلام تقول غير مبالية بشيء: بينما يموت آلاف البشر في الحرب تنصب سلمى غرفة شمسية فوق سطح البيت لتجمع داخلها النفوس الحزينة واليائسة ولتجعل الدنيا تدور بها وبهم وتغمرهم بنور

الشمس، وبلمسة سحرية تستحيل حقول الألم إلى فراديس بهيجة. هراء هراء

قالت سلمى من بين دموعها: صنعنا هذه الغرفة لنا ولم نعلنها لأحد..

هبطنا السلّم في صمت وعلى وجوهنا غمامة من الغيظ والخيبة، وتلاشى تأثير الشمس.. قلت لنفسي: نحن نجوم مطفأة لن تحييها غرفة الشمس ".

صباح اليوم التالي وجدت سلمى منكمشة عند زاوية الأريكة، يداها ترتجفان ووجهها شديد الشحوب وفي عينيها ذبول ليلة عسيرة، قلت لعلّه البرد، أو لعلّها مريضة حقاً.. كانت تحدّق بأشجار الحديقة أو بشيء آخر يلوح وراء السور الجانبي، ولم تشعر بي وأنا أقف وراءها، لمحنا هيأة رجل وراء أغصان الشجر العارية الملتفّة وسرعان ما اختفى، وسمعتها تتنهد، قلت: سلمى..

فاضطربت ونهضت لتقف أمامي.

قالت: هدى، هل تعوزني المواصفات الأساسية لأكون امرأة محبوبة؟ ما الذي ينقصني حقاً؟

واحترت فيما سأقوله لها، فاستطردت تقول:

– أجل تنقصني البراعة، براعة "أحلام" وجرأتها، ولكن عمّ أبحث؟ لماذا ينبغي لنا أن نتزوّج ونصحب رجلاً إلى بيته نهيّء له طعامه وملابسه نمازحه ونمرح معه وننام ونصحو من أجله وننتظره بلهفة ونرى العالم من خلال عينيه، ألأجل أن يضلّلَنا ويخدعنا، كلا لن أفعلها يا هدى، هل ينقصني الآن شيء لأعيش مثل أيّ سيدة كريمة وأتمتّع

بحياتي؟ ترى لو كنت رجلاً أتراني سأبحث عن زوجة ممتعة لا زوجة ذكية وجميلة توازيني في أشياء كثيرة؟ أنا أعلم أنني مملّة، ولن أجيد اختراع البهجة، وأحلام على العكس منّي امرأة ممتعة، تتحدّث وتغوي، فيحبّها الرجال.

وصعقني حديثها: لقد بدأت الغيرة تنشب مخالبها في روح سلمى، أنا التي كنت أظنها تغبط أحلام اكتشفت أنها تحسدها، وتسعى للحط من شأنها، وخُيّل إليّ أنها تحب رجلاً لا يحبّها، وأشفقت عليها وخشيت أن تحسّ بإشفاقي، فلم أقل شيئاً، بكيت في ذلك النهار وأنا أتذكّر عيون مرضاي وآلامهم وهم ينظرون إليّ ويحدسون ما أفكر فيه: إنّهم ميّتون لا محالة، هكذا نظرت إليّ سلمى مستعطفة وخائفة، كان لجلدها ملمس جلودهم المريضة ولونها الباهت، وذكّرني شعرها المنفوش بشعر إحدى مريضاتي وهو منتشر على الوسادة وقد بلّله عرق الحمّى واقتراب الموت.

ومرّت بي لحظات تذكرت رائحة أنفاسهم واختلاط روائح الأدوية بروائح أجسادهم الخائفة، كنت ألمس جِباه السيّدات والرجال فأحسّ تحت أصابعي بسريان الخوف الذي يحسّونه، كأنّه تيار كهربائي خفيّ سرعان ما ينتقل إليّ، وعندما أطمئنهم بكلماتي يتوقّف مسرى التيار وتبرد الجباه المحتقنة الساخنة.

ظنّت سلمى أنّها المرأة الوحيدة الخاسرة في هذا العالم، أو في هذا البيت، كنت أريد أن أحدّثها عن علاقتي بذلك الرجل اللامبالي، الذي لا يحترم مشاعري تجاه عملي ومرضاي.. حتى صرت أتجنّب الحديث عن الآخرين حين ألقاه، أنا امرأة جادّة والحياة تتطلّب هذا إلى جانب المرح فلأصمت ولن أقول شيئاً كنت أريد أن أشكو لسلمى همّ روحي، أن أقول

لها أنّ الرجل مخلوق أناني لا يتحدّث مع من يحب إلّا عن نفسه وإذا تأمَّل مشهداً جميلاً أو زهرة أو غيمة أو تحدّث عن الزمن فإنَّه يتحدّث عن نفسه، إنّه يقول لي:

– أنا سعيد لأنّك معي، وأنت تجعلينني أحسّ بالسعادة والرِّضا، أنتِ جميلة ومعك أجد نفسي ويمضي في حديث لا ينتهي عن نفسه وأعماله ومتاعبه وعندما نفترق لا أحمل معي جملة واحدة متألِّقة سمعتها منه، أو كلمة تحمل لي معنىً جديداً وتكشف لي عن قيمة غالية.. فهو لا يتحدث إلّا عن وجودي المادي معه، عن جسدي، وعندما أعود إلى البيت لا أحمل إلّا ذكرى دفء يديه وهو يصافحني ويأخذ يديّ بين يديه، وفي سمعي تبدو شاحبة مثل ظلّ كلمة "أنت جميلة"...

– كلّا إنّ هذا يبكيني فليس هذا ما أريده، إنّه يتحدث عن أشيائه وينساني وأظلّ أمامه محض مستمعة تنصت إليه في صمت، كلّا إنّ ذلك عسير على امرأة مثلي.. إنّه يحاول إشاعة نوع من البهجة السريعة والمرح بالكلمات والتعليقات.. ألم يكتشف بعد أنّني لا أبحث عن فرح مثل هذا؟ قلت له ذات مرّة: إنّني أجد متعة في عملي.

– قال: هل أنّ عملك هو مساعدة الناس أم الحصول على المتعة في مساعدتهم؟

قلت له: الأمران مرتبطان، وأحدهما نتيجة لسبب. أنا أقوم بعملي لأنّني أحبّه ولأنّ الناس بحاجة إلى أفراح صغيرة، إسمعني جيداً، إنّ الحياة قاسية علينا جميعاً نحن البشر والموت آت، إنّني أمنحهم الفرح، فيهبونني بقبوله المتعة الحقّة.

قال: أمّا أنا فأجد المتعة الحقّة في القراءة.

قلت له: سيأتي يوم تزهد فيه بالقراءة. إنّما لن أزهد قط في عملي،

ثم أتظنني لا أقرأ؟، إنني أقرأ وأحزن أكثر مما تظن، وأتمتّع بعملي ولكن حياتي ليست خالية من المُتع الأخرى.

قال لي: عملُك يا هدى ذو طبيعة حزينة، عمل جاد مرهق، فأيّ سعادة تجدين فيه؟.. إسمعي أنت لن تجدي السعادة والمتعة إلا معي، .. إلا إذا تزوّجتني..

قلت له: لن أتزوّج.

– حتى وأنت تغضبين تبدين غاية في الجمال ما أروعك؟ كل شيء فيك يشع بالجمال كتفاك، عنقك ساعداك، صدرك.

كان يقطّعني مثل جزّار محترف، يقطّعني ويمتدح أشلائي بعيداً عنّي، يمتلك الجمال الذي يحسّه في أعضائي خارج الائتلاف مع روحي. كرهته، كرهت ذلك وتمنّيت أن يكفّ عن ترداد هذه العبارة المبتذلة: كم أنت جميلة، ترى ألن أسمع يوماً من رجل أحبّه كلمة أخرى لا تقال لكلّ أصناف النساء؟.

عندما أنبأته مرّة أنّني حزينة ومكتئبة وأنّني أبكي في بعض الليالي أبكي الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن في الحرب والنساء الوحيدات والرجال المنكسرين المهجورين، ضحك ضحكة جوفاء ساخرة ثم داعب ذراعي بزهرة كانت في يده وقال:

– إنك أجمل من أن تنشغلي بكل تلك الأحـزان، كلّ امرئ يعيش قدره فما شأنك أنت؟ هل ستصلحين نظم العالم؟.. إن كنت صادقة حقاً فاسعي لسعادتك فقط. وأخذ يسرد لي حكايات مسلّية عن نفسه وقراءاته، هل أتزوّج رجلاً مثل هذا؟

في الليل كنّا منهكتين لم تعد أحلام، لقد هُزمنا وهُزمت شمسنا، كنّا

ثلاثتنا في حالات حب متباينة مشتّتات تُغرقنا الأوهام وتتجاذبنا المخاوف.

من ينظر إلينا كان يرى صورة امرأة في وضعيات مختلفة لكنّها امرأة واحدة حزينة حالمة وقابلة للكسر، كنا في السابق نحلّق في جو البيت المشمس وتحرقنا الذكريات الصغيرة الساخنة وعندما نتحدث عن أمر ما يقتحم أصواتنا موج من العاطفة ويلوِّنها ويفضح كل محاولاتنا للتستّر عليه، وعند منتصف الليل سمعت نحيباً مكتوماً أسرعت إلى فراش سلمى، وجدتها تبكي وهي مسحوقة تماماً، لم أقل شيئاً، وعدت إلى فراشي..

الصباح ثقيل لا دفء فيه، غابت عنه أحلام وعذوبتها، اكتشفت أنني أحبّها أكثر ممّا أحب سلمى والآخرين، ثم تمنيت للحظة أنانية واحدة لو أنّي لم أعرفها كل تلك المعرفة فأحزن من أجل فراقها كل هذا الحزن، كنا قريبتين من بعضنا فكلتانا سريعتا العطب والبكاء، ولا نستسيغ العيش من دون حزن نستسلم له ثم نكافح للخلاص منه، كانت تقول لي: سأنتهي فريسة مأزق عاطفي بحجم الكارثة. وعندما ننفرد أنا وإيّاها كانت تناضل في نفسها نزوعها القوي إلى الإذعان، كأنّها تحاول الإفلات من قبضة قويّة تمسك بها، ثم بعد برهة تستسلم لذلك الشيء المجنون لاغيةً كل محاولات الإفلات ورغبة التحرّر وبعد حين تعود لمحاولاتها السابقة لتنطلق إلى إمداء روحية جديدة مستعينة بي وكان هذا الصراع المتواتر يرهق نفسها ويقودها إلى عذاب مستديم..

في الأيام السابقة قلت لسلمى:

– إنّ أحلام تقترب من الجنون..

وصمتت سلمى كأنّ الأمر لا يعنيها..

وإذ رأتني أحلام منفردة، جاءت إليّ وقالت:

– هدى، أنا أحترم قوّة التحدّي فيك، إنّك لا تستسلمين بسهولة.

قلت لها: أنتِ قويّة ومتوازنة يا أحلام..

– بل إنني أواجه جفاف زمني بهذا الفيض من العواطف الذي أغدقه في أرض بور... !

– ...... ؟.

ولم تقل شيئاً بعد ذلك..

قلت لسلمى: إنّنا بإهمالنا لشأنها سنسلّمها للجنون، ولا بدّ أنّ الصدمة كانت أعنف من أنْ تحتملها..

قالت بحسم: هي التي هربت بحياتها بعيداً عنّا فلا تلاحقيها. وانشغلت بعملها ولم تستجب لكلّ محاولاتي للبحث عن أحلام المختفية.

أمّا أنا فقد أنجزت كتاب "النفس والشمس" وهيّأته للنشر بمعونة مؤسسة طبية غير أنّي لم أتوقّف عن التفكير بأحلام لحظة واحدة.

بالأمس كنت أحذّرها من جنونها، قلت لها: وَلا رجل في الدنيا جدير بحبّ مثل حبّها... قلت لها أخشى أن تفاجأي يوماً بخذلانه لك فتنتهين، وتفقد مدينتنا أفضل نسائها..

سألتها: ماذا تفعلين يا أحلام لو أنّه هجرك؟

فتضحك مما تسمّيه سذاجتي وغفلتي وقصور خيالي:

– لو هجرت الشمس سماءنا لما هجرني...

وكانت سلمى تستمع إلينا وتسرح بعيداً من دون أن تعلّق بشيء..

وعندما كنت أحذّرها كانت تغضب وتخاصمني أياماً وتذهب إلى

بيت أختها، ثم تفاجئني بعد حين من غير أن أتوقّع حضورها، تأتي مستغفرة معتذرة مثل ابنة عاقة تحمل لي في حقيبة يدها، مع قصائدها قطع حلوى وفي يدها باقة زهور تفوح بأشذاء تشبه ابتساماتها، أخفّ لعناقها لدى الباب فتنهمر دموعنا، وتنظر إلينا سلمى بحياد لم تألفه ثم تقول بودٍّ مصطنع:

– هيا أيتها الحمقاوان...

وتقول أحلام: هذا بيتي الحقيقي بيت أخوات الشمس، تلقي معطفها وحقيبتها، تنسّق الزهور في إناء، ونحظى بساعات سعيدة، نسمع الموسيقى أو نتحدّث أو ندع أحلام تقرأ لنا آخر قصائدها. وتهمس سلمى "لا بدّ أنها التقته هذا اليوم".

وتسمع أحلام فتقول: سنتزوّج قريباً، ستزورانني في بيتي وتتعرّفان إليه.. أم أنّكما لن تأتيا إليّ؟..

بعد أسبوعين اتَّصَلْتُ بأختها، قالت الأخت:

– لا تريد رؤية أحد ونحن نحترم رغبتها بخاصة أنها شفيت وستعود إلى عملها قريباً..

– أمريضة هي؟

– انهارت تماماً، ثم عالجناها ولا تريد أن ترى أحداً يذكّرها بما مضى، لكنّها تذكرك أنت دون الآخرين..

بكيت، بكيت أنا التي كنت أبكي من أجل نساء لا أعرفهن بكيت من أجل أحلام وأنا أجهل ما حدث لها ومرّت الأمسيات الفارغة والأيام الباهتة وقلت لنفسي وقد زال الحزن:

– إنّ في الحياة اختيارات كثيرة، ولكن.. عندما يدرك المرء ذلك

يكون قد تبقّى منها القليل، ويكون العمر قد تقدّم به وبدأت الأبواب تُغلق تباعاً، كان علينا أنْ ندرك هذه الحقيقة..

– بدأت سلمى تكثر من الخروج وأهملت العمل في تصاميمها وخلال تناول الغداء لمحت ذبولاً في محيّاها، وانخفاضاً واضحاً في وزنها لكنّها كانت مستثارة المشاعر وفي عينيها ذلك البريق الخاص الذي لا تخطئه امرأة مثلي "بريق الحب".

كانت تبالغ في التأنّق وتنفرد بنفسها وعندما تجالسني لا تقول إلّا أشياء قليلة باهتة.

وأسألها: أسمعت شيئاً بشأن أحلام؟

وتهز كتفيها وتقول: أوه.. هي التي اختارت هجرنا.

من أين لسلمى تلك القسوة الباردة واللامبالاة المقيتة؟.

وأخذت سلمى تبتعد عني شيئاً فشيئاً وكنت ألاحظ ازدياد ذبولها وأنصت إلى مشاهد هذياناتها الليلية عندما تصطنع حواراً بصوتها وصوته يجسّد عذابها وانكسارها..

هل تقتفي سلمى خطى أحلام؟..

ما يفزعني أنهما تمتلكان الفكرة الغامضة نفسها عن السعادة التي سرعان ما تستحيل شقاء جرّاء كلمة تقال أو هفوة صغيرة تقترف أو ضحكة تمر.. كانت الاثنتان لا تميّزان بين الفرح العابر والسعادة الأكيدة..

في الليل أسمع سلمى تبكي، وتهذي وقد ميّزت في هذيانها عبارة فتحت لي أبواب حزنها: "كم تمنّيت أن يحبّني ويقول لي عندما أبكي أن دموعي لا يساويها شيء في العالم أو يحدّثني عن أولاد سننجبهم

وبلاد نزورها، كم كنت أتوق إلى يوم أرى فيه ثيابه مختلطة بثيابي وأرى حذاءه الأسود إلى جانب حذائي قرب سريرنا الدافئ... ".

طرقت الباب ودخلت، كانت عيناها محتقنتين ووجهها مبللاً ببقايا الدموع..

– ما الذي تفعلينه بنفسك؟.

– لا شيء يا هدى..

– أأحضر لك حبوباً مهدّئة؟.

ابتسمت بإشفاق وسخرية: كلا..

– هل جننت يا سلمى؟...

وألقت بنفسها على الفراش وهي تنشج، لمحت مظروفاً أزرق تحت وسادتها قلت: ماذا هناك؟

– لا شيء.. أنا ببساطة ضحية وهم، ضحية الشمس. كنت ألاحق الشمس من الصباح حتّى المساء، أتألّق وأشتعل وأذوي في مثل مواقيتها وفي الليل أجد كلَ شيء أصم ميتاً: الجدران والكتب والعمل، عندما تغرق الشمس في داخلي أموت، ينتهي كل شيء يربطني بالزمان.

قبل أن تغرب الشمس كنت أخرج وألتقيه هناك عند التلال، أرى ملامحه العزيزة تحت قوس قزح الغروب، نجلس معاً، يمدّ يده إلى وجهي، يتلمّسه كأنّه كنز يحدثني بصوت أشبه برفيف العشب أو تدفّق المياه، وأغمض عينيّ لأحتفظ بهذه الصورة إلى الأبد، وعندما أفتحهما لا أجد شيئاً.. يغيب ويتلاشى الحلم الذي ابتدعته.

– لم أقابله قط.. ولكنني كنت أحبّه وهو لا يعلم، لم أجرؤ على فعل شيء.. كنت متردِّدة وتائهة، أنا متعبة متعبة يا هدى..

- قلت لنفسي: ستضيع سلمى مثلما ضاعت أحلام.

- ثلاثتنا كنّا نمسك بالحياة ومصاعبها، الحياة تتطلّب منّا الكثير، نعمل طوال النهار ونأسى لأنفسنا، نعمل لنواجه الحياة ونعمل لإدامتها، حتى وجدنا أنفسنا أخيراً وقد هدّنا الإعياء وانتهينا إلى أوراق شجر يابسة..

- في بعض الأماسي كنت ألقي بنفسي على الفراش بملابسي وحذائي وأترك المصباح مضاء فلا أجد من يسحب على جسدي المرتعش طرف غطاء ولا من يناولني كأس ماء إن ظمئت.

وازداد كل شيء قتامة بمرور الزمن، الهالات الزرقاء حول عيوننا وألوان ثيابنا وغرفة الشمس المهجورة وأوراقنا، كل شيء فقد ضوءه وذوى، ونحن في وحدتنا نضع على مائدة "عشاءاتنا الأخيرة" عشاءات وهمنا وخديعتنا، كثيراً من الوعود السخيفة والكلمات الجوفاء. قرّرت: لن أتزوّج هذا الذي يسخر من حزني ولا يحب سوى نفسه في حضوري.. وهكذا قرّرت أحلام وانسحبت وها هي تصنع لنفسها حبّاً من دخان فتتسمم بدخانها !...

إتصل بي وقال بصوت مرح:

- أعدّي نفسك لمفاجأة..

ضحكت بمرارة، كان وجوده الحميم أوّل الأمر هو المفاجأة العظيمة في جفاف حياتي وبؤسها، الآن لم يعد يعنيني من مفاجأته شيء قط...

قال: هدى سنتزوج قريباً..

ولم أقل شيئاً.. لا أريد أن يفعل ما يرضيني لأنه يخاف أن يفقدني، أريده أن يفعل ما يؤمن به حقاً، وتذكّرت أمنية سلمى البسيطة:

"تمنّيت أن تختلط ثيابه بثيابي، وأن أرى حذاءه الأسود إلى جانب حذائي قرب سريرنا الدافئ..." صورة بسيطة ومبتذلة للوئام الذي لا يتطلّب كثيراً، ليتني كنت أفكّر على نحو مشابه إذاً لارتضيت بكل شيء..

طاف بي في المحلات التجارية على طول الشارع التجاري الرئيسي واخترنا قطع الأثاث واللوحات والستائر والمصابيح ولم نكن نشتريها، بدت الشوارع في تلك اللحظات أنهاراً من الضوء والبشر مخلوقات صغيرة وادعة، أحزن لحزنها وأفرح لسعادتها، وكانت الألوان الكثيرة المتنافرة مهرجان حياة نابضة..

عندما سألني عن سلمى وأحلام، قلت له:

– لسنا على ما يرام.

– قال: ذلك أفضل، ستكونين منصرفة لي وحدي، إنّهما تسكنان روحك وتسلبانك منّي..

حين عدت إلى البيت بدأت أسترجع كلّ ما قاله لي وأحلّله ولكن ذكرى حرارة يديه ونظراته منعتني من إدانته، كنت أتلمّس على يديّ آثار أصابعه فأحسّ أنّ سعادتي معه أشبه بحريق أو أقرب إلى اللعنة، سعادة تُقت إليها وارتعبت منها، مراراً قرّرت أن لا أراه ولكن ما إن يحين موعدنا حتى أخفّ إليه كأنّني غيمة وأمطر على يديه كلماتي ودموعي وندمي...

قالت سلمى ونحن نتناول غدائنا:

– رزق أخونا فؤاد بطفلة، علينا أن نزوره لنبارك ونَصِلَ ما انقطع بيننا وبينهم..

وقلت: هذه بشائر العافية والهبوط إلى الأرض.. وافترّ ثغرها عن ابتسامة واهنة، لكنها ابتسامة على أيّ حال...

طلبت إليّ أن أسرع في إنجاز القسم الأخير من بحثي الجديد لتطلّع عليه ولعلّها تستفيد منه في تصاميمها.

قلت: لست متفرّغة تماماً..

قالت مهتاجة: أنت تكثرين من الخروج هذه الأيام.. واقتربت مني وقالت بصوت أرقّ من ذي قبل:

– ماذا حلّ بنا؟.. أين أنت؟..

– أنا هنا، وأنت التي لا ترينني..

– حقاً، منذ أسبوع لم نجلس معاً، كنت أعمل طوال الوقت وأنت تخرجين إلى حيث لا أدري ثم تعودين ولا تحدّثيني قط، اسمعي، لا أريد أن نضيّع جهودنا سدى، العمل هو السعادة الكاملة وكل ما عداه وَهْم.. قولي لي ياهدى متى نذهب إلى بيت فؤاد.. أيناسبك مساء الغد؟

– لديّ موعد.. لماذا لا نخرج اليوم؟

– لديّ موعد، ولكني سأعود بسرعة وقد نخرج بعد عودتي..

وتذكّرت أنّني قد ألقاه اليوم إذا ذهبت إلى مركز البحوث..

– قلت: دعي ذلك ليوم آخر..

وضحكت: ها نحن نتناوب في ابتكار الأعذار وفي الخروج، ترى أليس بوسعنا أن ننسّق مواعيدنا معاً؟.. ألن يكون ذلك مدعاة لراحتنا؟.

قلت لها: قد أغادر البيت قريباً!

– تلحقين بأحلام؟

- بل أتزوّج !

في المساء التالي خرجت وانتظرته طويلاً فلم يأتِ وجاءني النادل الذي يعرفنا كلينا وسلّمني رسالة اعتذار منه:

"أمي مريضة، سأصحبها إلى المستشفى، معذرة قد أراك مساء الغد.."

قد أراك!... عدت إلى البيت مكدّرة وفي قعر حقيبتي ترقد ورقته الذابلة وتوقيعه المرتبك..

قالت سلمى: أنت متوتّرة.. هيّا إلى الغرفة الشمسية..

قلت بصوت منكسر: ها قد جاء دوري..

قالت: كلّنا مررنا تحت قوس الشمس، كلّنا مررنا من هنا.

وعندما أخرجتني من الغرفة الدوارة أحسست كأن أطرافي مغمّسة بسائل دافئ، وشعرت بخفة في جسدي وبشيء يتسرّب من مساماتي، شيء عزيز يغادرني يودعني جسداً قوياً، لكنه أجوف خاو لا معنى له..

نظرتُ إلى نجمة المساء التي سطعت، إلى السحب الأرجوانية وقِمَم الأشجار المرتعشة فلم أشعر بشيء قَط، كان قلبي خامداً مثل جمرة انسكبت عليها الدموع..

سألتها: هل خرجت بعدي؟

- أجل وعدت مسرعة، ومنذ اليوم سأنصرف للعمل وحده.. ستجدينني أمامك متى شئت.

قلت: قد أرحل عن البيت.

لم تقل شيئاً: وعندما كنت أتهيّأ للخروج مساء اليوم التالي سلّمتني الرسالة:

- إنّها من أحلام، لك..

صرخ خط أحلام المضطرب أمامي:

"هدى أنا الآن أقبض على رماد، ولكنني سأكشف لك عن اسم الرجل بعد أن آل ما بيننا إلى قطيعة، كان الحب أقدس أسرارنا أما الآن فقد تجاوزنا مرحلة اختلاط الرؤى والمشاعر، فقد اكتشفت أنّ "....." صار رجلاً مثل ملايين الرجال الذين يعبرون الحياة كأنهم الظلال الباهتة بعد أن سقط عنهم جلالهم الإنساني ورفعتهم السابقة.. صار مخلوقاً عادياً لا يميّزه عن الآخرين سوى أسلوبه الخاص في السقوط المخادع.. هدى.. لن أندم ولن آسى لشيء وأنتِ لا تحزني من أجلي.. قد نلتقي ولكن من دون سلمى و (....).

كانت يدا سلمى ترتجفان، ووجهها أبيض شمعياً، لقد كذبت عليّ، كذبت على أحلام، قلت لها: لماذا لم تسلّميني الرسالة وهي مرسلة إليّ...

قالت وهي تنتحب: إنّها تخصّني أيضاً.

وانكفأت تبكي على مسند الأريكة.. لم أصدّق كل هذا. لم أصدّق أنّه... أنّه...

رميت معطفي وأخذتها إلى فراشها واندسست معها تحت الغطاء ولم أخرج إلى موعدي معه قط..

١٩٨٥

ليلة العنقاء

ليلة العنقاء

فجر القرية أخضر أبيض، تميّزه رائحة الحليب وزهر البرتقال ووحل السواقي وروث البقر، له صوت الأذان وصياح الديكة والعصافير وحشرجات السعال ووقع حوافر الدواب وطقطقات الشرر في المواقد..

فجر القرية، وخيط من ضياء يتسلل إلى حجرة "بدور" المظلمة لا تعرف بدور أهو ضوء الشمس أم نور القمر، ما أدراها؟ لعله ومض البرق تجمّد في شق الباب، لكنها لا تسمع صوت رعد ولا زخات مطر.. ولا تعرف ما إذا كان الموسم شتاء أم صيفاً، أم هو أول الخريف...

إنّه الفجر، وبدور تشم رائحة الحليب الساخن وتصل إليها رائحة البقرات التي نامت على التبن الملوّث بالزبل في الليل، كما تصل إليها نفحات من عطر الورد والحطب المحترق المالح ونكهة الشاي.

تحدّق بالباب وترى خيط الضوء البلوري أمامها، يعتريها إحساس ما لا تعرف اسمه، تتلمس جلد ذراعها، تجدها خشنة محبّبة مثل وجه رغيف خبز منثور بالسمسم.. تحب خبز السمسم.. بل تكرهه لأنّ الشيخ عبد الدايم يطلبه على مدى الأيام.. أهو البرد، أم أنّها لسعات هوام الليل؟..

إنّها لا تعرف... لا تعرف..

تنشّقت هواء الحجرة الثقيل المليء بأنفاسها الليلية ورائحة جسدها

وعرقها وبخار الطعام المتحلّل الذي تترك بقاياه من فضلات الوجبات في زوايا الحجرة.. سحبت جسدها الضامر من سرير السعف وأنزلت الساقين وإذ لامست القدمان الأرض أجفلت بدور، أحسّت بدبيب تحتهما، وبرد لزج، الأرض طين أسود بارد، الهواء تحيطه كتل من الظلمة الكثيفة والخوف، وخيوط العفن الخضراء والبيضاء.. لو أنّهم فتحوا الباب الآن لتساقطت الظلمة قطعاً خفيفة من ريش أسود وقشور سوداء وخيوط خضراء وغطّتها ودفنتها تحتها..

رفعت ساقيها إلى السرير، دثّرتهما بسترة عتيقة مدعوكة نصف ممزّقة كانت لجدّتها وظلّت تحتفظ بها بعد رحيل الجدّة المعمِّرة ولم تدَع أحداً يسلبها إيّاها.. سترة قديمة خيطت من مخمل أسود وبُطّنت بحرير الشارميز الأحمر العنّابي، الذي صار لونه بنيّاً لِقِدَمِه وتراكم الأقذار عليه.. تحتضن بدور السترة وتحتمي بها، تشم فيها رائحة طفولتها، وجلد الجدّة وشعرها الأبيض، وترى فيها فمها الأدرد وتسمع منها حكاياتها الجميلة، وتسعد بحنانها الكثيف الحلو مثل دبس التمر.. مذ كانت طفلة صغيرة اعتادت أن لا تنام إلّا وهي ممسكة بسترة جدّتها وبطانة الحرير الحمراء التي تصوغ لها أحلامها، كانت حكايات الجَدّة تأخذها إلى أجراف النهر وتحكي لها عن "بنات الجرف" اللواتي يرددن كل صوت يسمعنه ويُجِبْن عن كلّ الأسئلة، فتيات لهنّ أجساد بيضاء مثل الملح ولهنّ عيون لامعة مثل عيون السمك، وأصواتهن رفيعة، ولا يظهرن إلّا نادراً، يختبئن في كهوف الأجراف ويصنعن أصداء لكلّ صوت يعبر النهر ثم يطلقنها مع الريح، يأكلن السمك ودجاج الماء ويركبن على ظهور السلاحف المعمِّرة عندما يتنزّهن في الليالي المقمرة، كانت تأخذها إلى أجراف نهر "ديالى" في الفجر والمساء تبحث لها عنهن..

تلمّست "بدور" عنقها وعظام صدرها ونهديها الصغيرين

المنكمشين، سمعت صياح الديك الأحمر الذي له ألف لون في ذيله المقوّس، سمعت قرقعة الأباريق والأواني في باحة البيت، وطقات قبقاب أمّها. نهضوا من النوم.. وتحرَّكوا بعد همود الليل، وهي وحدها التي لا تنهض لأنّها لا تنام..

تسمع في الليل أصوات الصمت وتعروها رعشة فزع ورعشة لا تعرف ما تسمِّيها، عندها تخاف وتضم ساعديها على صدرها وتدني ركبتيها من بطنها.. تسمع فحيح السعالي وهي تطحن بذور السمسم تحت أسنانها وتتنهّد وتختطف الرجال وتأخذهم إلى مغارات تحت الماء أو وراء البساتين الزرقاء لتضاجعهم.. تسمع أصداء بنات الجرف. وشخير الماء، وصهيل الخيل، وانتحاب القمر.. وبين هذا التشوّش من الأصوات والخوف والظلمات والروائح وبين النوم واليقظة تسمع صوت "مالك":

– بدور، أنتِ لي، لن يأخذك رجل سواي..

تضحك بصوت متكسِّر، تقهقه وتحسّ بحنجرتها جافّة ومحروقة، ترفع سترة الجدّة – إرث طفولتها وملاذها الوحيد وتسحب ساقيها وتصلصل السلسلة في قدمها، تجلس على الحصيرة الممزّقة الرطبة. تحسّ بالتقزّز، تغمض عينيها..

هي بينهم تشرب الحليب الساخن وتأكل الخبز وزبد الماعز الأبيض والجبن الحلو.. كلا. شبعت، هيا عطني فطور جدتي..

وتذهب إلى الجدّة فلا تجدها في فراشها وتبحث عنها فتراها مكوّمة مثل سلّة من أغصان الصفصاف مفلوشة النسج عند رأس السرير على الأرض، صغيرة ضئيلة، عندما تسمع حركة الحفيدة تناديها، بدور بدور، احمليني من هنا، تحمل الصغيرة الجدّة وتلم أعضاءها النحيلة

في الثوب الأسود الفضفاض، تجلسها على البساط الدافئ النظيف، وتسقيها الحليب..

تذهب بدور لتغسل يديها، يلسعها الماء البارد، تحسّ بشيء لزج على أصابعها.. أصابعها في الطين أمام الحصيرة. وهي تحمل بعضاً منه في يدها..

فمها جاف، رائحة الحليب تثيرها، يتحلب ريقها... وتحسّ باضطراب في جوفها ! تمسح لعابها بطرف كمّها..

تحسّ بأصابع الشيخ عبد الدايم مثل الديدان تدبّ على صدرها، وعنقها ورأسها: تحسّ بأفواج من اليرقات.. ليست يرقات دود القز البيضاء التي كانت تربّيها في غرفة التوت، بل اليرقات السود المشعرة المقززة – تدبّ على جسدها.. تبكي.. تفزع تمسح عن جسدها الدبيب، تفرك جلدها اليابس تنفض ثوبها بحركة يائسة.. وتقف.. ثم تعاود الجلوس على السرير مخافة أن تتسلق الديدان جسدها مرّة أخرى.. مذ كانت طفلة، قبل سنوات.. بعد انتهاء الحرب الثانية وعودة الإنجليز إلى البلاد كما يقول أبوها – فوجئ أهل القرية بمجموعات من العمال تحفر حوضاً كبيراً عميقاً ذا شكل مربع وسط ميدان القرية، يجاور النهر من جانب والشارع المؤدِّي إلى السوق من جانب آخر. ويقع إلى الجنوب منه مرقد وليّ صالح تحيط به قبور المريدين... وحول الحوض ارتفعت أكوام ثلاثة: حصى صغير، وحصى كبير ورمل أحمر زجاجي خشن قيل إنّهم جاؤوا به من ساحل بحيرة في الصحراء الغربية، عجب القرويون من هذا الذي يحدث في القرية ولم يعرفوا بادئ الأمر شيئاً عن هذا الحوض الغامض، وصار الصغار يتجمّعون للتفرّج أو التراشق بالحصى أو العبث بالرمل اللامع بلون الصدأ، ثم جاء من يقول لهم: هذا مشروع لتصفية المياه، لن تشربوا بعد اليوم من النهر العكر ولن

تصابوا بالأمراض.. فرحت النساء الكبيرات لن يذهبن إلى النهر لحمل الماء، وحزنت الشابات والشبان: سيذبل الحب، وتموت المواعيد ولن تسمع رنات الخلاخيل وهي توقّع خطى الفتيات وخفق قلوب الرجال..

تصدّى الشيخ عبد الدايم للمشروع وقال: حرام، حرام.. ستشربون الماء الراكد المسموم. وتهدرون الماء الراكض الحي للأسماك والبقر..

وصلت سيارة عجيبة لم ير القرويون مثلها، ترجّل منها رجل بملابس فخمة يضع نظارات طبية على عينيه وتبعه اثنان من رجاله، تحلّق حوله الرجال، رفرفت كوفياتهم وعباءاتهم لفرط الانفعال وكتموا سعالهم الذي هيّجه الارتباك، وتدافعوا بالمناكب لرؤية الرجل عن كثب، صافحه الكبار وصفّق له الباقون وأولم له كبيرهم وليمة لم يألفها القرويون. ذبح خروفين وعشر دجاجات وأربعة أزواج من طيور الدراج، توّجت صواني الرز العنبر المخلوط باللوز والكشمش والزعفران. وفي اليوم التالي هدرت سيارة أخرى أغرب من الأولى وهبط منها رجل بدين له وجه متورّد لامع وشعر أسود مدهون ويرتدي ملابس غالية وساعة ذهبية وله صوت يشبه النقيق وابتسامة باردة.. أحاط به الرجال وارتجفت سيقانهم تحت ثيابهم الخفيفة واستمعوا إليه وانتشوا بوعوده ومداعباته واهتمامه بهم ودوّختهم رائحة عطرة التي لم يشمّوا مثلها من قبل، وأولم له منافس كبير القرية وليمة ثأرية، ذبح خرافاً ثلاثة وخمس عشرة دجاجة وعشراً من طيور الدراج وشوى له سبع سمكات شبوط كبيرة إلى جانب صواني الرز والحلويات والفواكه..

وانتشرت بعد الوليمة على جدران المسجد والمدرسة والسوق أوراق تحمل صورة الرجل البدين وكتابات تتحدّث عن مشاريعه التي سينجزها إذا فاز في الانتخابات.

قال الأوّلـون: ننتخب "مدحت الكهلاني: فهو الذي أقـام مشروع تصفية المياه وتبرّع بكل تكاليفه..

قال الآخـرون: ننتخب الثـاني "محمد غلام الشريفي" فهو الذي سيبني مصنعاً لإنتـاج العصير ويشتري محاصيل بساتيننا ويشغّل أبنـاءنا العاطلين.

وبعد أيام جاء الكهلاني يتفقد مشروع المياه وأمر بجلب مزيد من الرمل والحصى وطلب من العمال أن يزيدوا في عمق الحوض وكرر الزيـارة بعد أسبوع ووعدهم بمشاريع جديدة أخرى..

وتم الاقتراع في المسجد وانتخب عشرة رجال للمرحلة الأولى من الانتخابات وذهبوا إلى المدينة في المرحلة الثانية ليختاروا النائب ممثلين عن أهل القرية وفاز الكهلاني ونشرت الصحف صورته وهو يصافح الوصي على العرش.

غادر العمال الحوض إلى الأبد.. امتلأت الحفرة بالقمامة والحصى والحجارة وروث الدواب، وشيئاً فشيئاً ملأها ماء النزيز وأسنت، رأت بدور وهي تذهب إلى دكان والدها في السوق طفلاً يبتلعه الماء، صرخت وجاء النـاس، وأخرجوا الطفل ميتاً، ولم تمر بدور قط من ذلك الطريق بعد ذلك.. صار العابرون الليليون يتبوّلون في الحوض وقيل إنّ جثة قتيل مجهول ألقيت فيه، ونمت نباتات البردي والطحالب والمخاوف فيه، وبعد أشهر قال ابو بدور لزوجته. سيجتمع اليوم أهل القرية جميعاً لردم الحوض، مات فيه ابن موسى الأعرج وابتلع النزيز ابنة عزيز الكردي. وبالأمس سقط أبو سعد الأعمى وكادت أم حليمة الضريرة أن تقضي عندما سقطت فيه وأنقذها الرجال.. من يدري قد يبتلع الحوض بشراً آخرين سأذهب لا بدّ أنّ الرجال تجمّعوا هناك..

قالت المرأة: وعملك؟.. متى تسلّم حصص التموين من الشاي والسكر والصابون والقماش للمستحقين، الناس ينتظرونك منذ أسبوع من غير شاي ولا سكر.. حرام أن تؤجل ذلك...

– في الغد يا أُم بدور.. فهذا العمل من أجلهم أيضاً..

– ومن سيذهب معي إلى ضريح الشيخ الشبلاني لإيفاء النذر؟

– فلتذهب معك بدور..

احتجّت بدور: لن أذهب، أخاف المقابر.

– اذهبي يا ابنتي، لدي عمل كثير، ولا أحد يعينني، لو كنت صبياً يا بدور لساعدتني في تسلّم بطاقات التموين وتوزيع الشاي والسكر وذرع القماش للمستحقين..

– أستطيع مساعدتك يا أبي... خذني إلى السوق...

– كلا.. اذهبي مع أمّك.. إنْ أخذتك سيسخر مني الرجال ويشمت بي الشامتون، سيشيرون إليّ ويقولون، هذا من لا ولد له، يعرض ابنته في السوق.. ومتى؟. في الليل !...

قال الشيخ عبد الدايم للرجال: ألم أقل لكم إنّ هذا حرام؟.. أرأيتم كم من الضحايا ابتلع هذا الحوض اللعين؟.. عودوا إلى النهر.

قال أبو بدور: صدقت يا شيخنا... صدقت..

ملأت أُم بدور زير الماء من النهر، وأضافت إلى النذر – صرّة من السكّر الأحمر الشبيه بالرمل الخشن، سكّر أيام الحرب. طنّت غيمة من الحشرات حول رأس بدور، بعوض وهوام أخرى بأجنحة شفافة ولوامس وممصات طويلة وأرجل مشعّرة، مدّت يدها إلى وجهها فأحسّت بسائل دافئ على وجهها ينسكب من عينيها، وضعت إصبعها المبلول

على طرف لسانها، وجدته مالحاً، آه.. الملح، وصرخت: الملح ينزل من عيني.. خفق قلبها وأرعبها الألم عندما أحرق السائل المالح خدوش وجنتيها.. أخذت السترة القديمة ومسحت وجهها.

سمعت طقّات قبقاب أمّها، ورنّة خلخالها، وشمّت رائحتها.. هي تحبها وتكرهها في الوقت نفسه، هل يكره الله بنتاً تكره أمّها؟ حرام.. ستقول الجدّة حرام يابدور: الأم لا يساويها شيء.. وكانت تخبّئ رأسها تحت السترة الدافئة وتتخيل أنها في حضن أمّها.. سحبت بدور ساقها المربوطة بالسلسلة ومدّت ذراعها نحو النافذة التي سمّروا عليها ألواح الخشب. محاولة نزع قطعة منها دون جدوى..

اقتربت خطى! انكمشت بدور وعادت تجلس على الحصيرة وتعقد ذراعيها النحيلين حول ركبتيها..

حملت الأم الديكين الأسودين وزجاجة العسل الذي أحضره عزيز الكردي من الجبل لزوجها، والأرغفة العشرة المكسوة بالسمسم وسلة الرمان وقالت لبدور:

– احملي دستة الشموع والبخور وصرّة السكر..

وسارتا نحو المقبرة إلى مرقد الولي الشبلاني بخطى مسرعة. سألتها بدور: لماذا لم تؤجّلي الذهاب إلى الشيخ حتى مساء الغد فيرافقك والدي إلى هناك؟

قالت لها: اصمتي، هيا ألا تريدين أخاً؟..

لم تدر بدور مقدار لهفة أمّها لمباركة الشيخ عبد الدايم لها علّها تنجب ولداً تسعد به زوجها وتضمن عدم انصرافه لامرأة أخرى، وهذه الليلة هي الأنسب كما أخبرهما الشيخ، فالمرأة طهرت من الحيض والقمر في المحاق والثريا في برج الحمل والسنة دارت على المشتري

إذ بدأت يوم الخميس وهذا فأل خير. قيل ستكثر الأمطار وتلد النساء صبياناً، ويرخص القمح بعد جوع القحط وتجود الثمار ويكثر العنب والأسماك.. ويخفّ الجور عن الناس..

كان الشيخ قد أنبأه: ستلد امرأتك صبياً إذا نذرت النذور وذبحت الأضاحي وصلّيت مائة ركعة في سبع ليال متتابعات وزرت مقامات الأولياء الصالحين بصحبتي..

قبل أن تدخلا المقبرة شاهدتا جمعاً من الرجال والشباب يهرعون نحو طرف القرية عند نهاية المقبرة حاملين الفؤوس والهراوات والمناجل، وماهي إلّا لحظات حتى ظهرت سيارة الرجل الذي انتخبوه نائباً ورأوا صورته يصافح الوصي على العرش في الجريدة.. وعندما حاذتهم السيارة هجموا عليها هجمة واحدة، فتوقف السائق ثم جعل عجلاتها تدور سريعاً وتنعطف في الطريق الترابي مثيرة سحابة من الغبار والضجيج فتعالت الشتائم والصرخات والوعيد.

حادت الأمّ وبدور عن الطريق ودخلتا المقبرة من طريق جانبي، وابتعدت أصوات المهاجمين الغاضبين غارقة في غبار أثارته السيارة المسرعة.

مدّت بدور يدها إلى الطين مرة أخرى، سمعت نداءه: خذيني، أنا ناعم وليّن وطيّع خذيني، أنا لست الباب المغلق. ولا النافذة، ولا السلسلة الثقيلة في قدميك، خذيني، لطّخت أظافر يدها، يدها اليسرى بالوحل ورسمت أشكالاً مثل تلك التي تُحدِثها الحنّاء على الجلد، ثم رسمت خطاً طويلاً بدأته من أعلى عنقها عند عقد ليرات الذهب المنظوم مع عيدان القرنفل والخرز الأحمر وهبطت مارّة بمنتصف صدرها حتى سرّتها الصغيرة وعانتها، ثم لطخت ثدييها وجبينها وبعد قليل أحسّت

به يتجمّد على جلدها، ثم يتشقق أثناء حركتها.. وانحناءاتها.. فكّت ضفيرتي شعرها الملبّد الجعد ووقفت أمام مساحة من الزجاج الأغبش لم يغيبها الخشب في النافذة. نظرت إليها فانعكست في عتمة نصف شفافة صورة وجهها. فزعت بدور وقالت للوجه الذي أمامها:

– خذني إلى مالك، إنّه ينتظرني تحت أشجار التين، قرب عين الماء.. تحت ظل الجبل البعيد...

– قال وجهها: اقتربي.. ادخلي في المرآة، ادخلي في الجدار، أنت خفيفة مثل الهواء.. أنت حلوة. أدخلي في الجدار، شعرك مثل عباءة الصوف السوداء.. أغمضي عينيك واقتربي، أوقفي تنفّسك واقتحمي الجدار.

وفعلت وألقت بجسدها الخفيف الأسمر، على النافذة والجدار، تشبّثت السلسلة بساقها فهوت على الأرض في ردّة الفعل المنعكسة واصطدم رأسها بزاوية سرير السعف.

.. وصلتا المقبرة.. كانت القبور تشبه رجالاً يصلّون في صلاة جماعية، منحنية وساجدة، تنبض في الغسق الغباري مثل الأجساد المتعبدة أثارت أقدامهما الغبار في سرعة الخطو، فبدا الغبار في حمرة الغسق أشبه بلهب ينشأ عن انتقال الأقدام الخائفة. ارتعشت أشجار الصفصاف والتوت، سمعت بدور خفقاً مثل وجيب القلب وشهقات، ورأت القبور الكبيرة والصغيرة تئن، وتزحف من حولها الأشواك وكتل العوسج، وتطلق زفيرها الساخن المالح الشبيه برائحة الجدّات الداخلات في بيت الموتى. وخيّل إليها أنّها ترى أشكالاً تعدو وتعبر مسرعة فوق القبور كأنّما تحلّق من دون أجنحة، وسمعت عظامها تصطدم بشجيرات التوت والصفصاف على الجدول القريب..

ارتعشت بدور، أمسكت قلبها، ويد أمها وضغطت عليها، قالت الأم: لا تخافي. وصلنا الضريح، انظري هو ذا ضوء الفانوس يشعّ من نافذة المرقد..

أفزعت خطواتهما المضطربة وهياج نفسيهما طائر اللقلق المعشش فوق قبة الضريح، طقطق بمنقاره ثم صفّق بجناحيه الواسعين مثل عباءة بيضاء، ومدّ ساقيه البرتقاليتين إلى الخلف وطار، وصوصت السنونوات في قبابها الطينية المستديرة التي بنتها بمناقيرها النحيفة تحت الطنف الحجري للمرقد، وطار سنونو أبيض له جناحان مغموسان في الليل وخفق قربهما، قرأت الأم سورة الفاتحة وآية الكرسي.. وخيّل إليها أنّها تسمع همساً قالت لتطمئن خوفها: وصلنا لا تخافي هذه أصوات طيور "السند والهند" ودبيب سحليات المقابر..

لدى الباب توقفنا. نادت المرأة بصوت مرتعش:

- يا شيخ عبد الدايم.. يا شيخ..

وأقبل الرجل نحوها بلحيته الكثّة، وعيناه الناريتان تشعان في وجهه العريض، خافت البنت واحتمت بعباءة أمّها.

قالت المرأة تدفع حرجها بحديث لا أهمية له:

- خافت البنت كثيراً، فزعت، وهي ترتجف، ستصيبها الحمى إثر هذا الفزع..

نظر إلى البنت وقال بصوت عميق كأنه آت من بئر لا قرار لها:

- لا تخافي يا بنية.. لا تخافي..

تقلّصت أصابعها على عباءة أمّها واصطكت أسنانها، وضعت

المرأة سلّة الطعام في الداخل الذي تملأ هواءه غيمة من البخور ورائحة الرطوبة العفنة وزفارة النذور، أجلس الشيخ المرأة على الحصيرة وقال: هات يديك.. تناول حقاً صغيراً به دهن أصفر، وبدأ يدهن راحتيها بهدوء أثارها وهو يحدّق في وجهها الأبيض الجميل ويقرأ تعازيمه:

فاحت من راحتي المرأة رائحة دهن الورد والزعفران، قال: ضمّي راحتيك وأسبلي جفنيك..

استدار نحو الصبية: تعالي لأذهب عنك الخوف. تراجعت بدور إلى الوراء مرتعبة منه، أفزعتها رائحة الرجل القوية ونبرات صوته العميقة.. أمسك بذقنها الصغير ورفع وجهها نحوه ونظر في عينيها:

– لماذا تخافين يا بنية؟..

تركها وألقى قبضة من حب "الحرمل" على الجمر في الموقد طقطقت حبات الحرمل بالتتابع وغمرت المكان رائحة نفاذة مغثية.

قال: اعبري الموقد سبع مرات. ارفعي ثوبك حتى لا يحترق. بدا ساقاها رغم نحولهما الطفولي مضيئين وناعمين عندما انعكست عليهما إشعاعات الجمر الأحمر الملتهب.

أمسك بساقها: هذا يكفي..

ناول المرأة طاسة من نحاس أصفر منقوشة بالطلاسم:

هيا – اشربي هذا الماء الذي رقيته وطفت به حول الضريح ومزجته بالعسل وأذبت فيه منفحة أرنب ذكر.. بإذن الله، وبركات الشيخ الشبلاني وكراماته ستلدين ذكراً..

شربت المرأة وسرعان ما أحسّت بشيء يسري في جوفها ثم

بعد برهة تراخت أطرافها وثقلت أجفانها واستسلمت لما يشبه نوم الغيبوبة.. مدّدها الرجل على البساط وغطّاها بعباءتها..

فزعت البنت وصرخت، نهرها الشيخ:

– "كفى، إنّك تبعدين الملائكة الأبـرار والجن الصالحين هيا.. ابتعدي.. ستفسدين كل شيء" وسحبها من يدها إلى الحجرة الثانية المضاءة بفانوس صغير وعاد إلى الغرفة الأولى...

وحدها في الغرفة جوار الضريح، وحدها في الضوء المرتعش، وأصوات المقبرة الليلية، وحديث الصفصاف للجدول، وأنين العوسج ورائحة الموت، والأجنحة الخفيّة التي تضرب في الهواء.. وحدها وصوت الشيخ المزغم يجيء متحشرجاً ثم لاهثاً، ثم متلاشياً.. وحدها.. وحدها والبرد والفزع يرعشان أوصالها.. وحدها وأمّها تريد "الولد" والشيخ يزجرها ويضعها في غرفة الزوار وينساها.. وحدها لم تعد تشعر أو تسمع شيئاً، فقدت حواسها كلها بفعل الرهبة والفزع..

عندما عاد إليها وجدها ترتجف وعيناها زائغتان. ناداها، فلم تسمع، ضربها وأمسك بذراعها وهزّها، رشّ الماء على وجهها وهي متّكئة على زاوية الجدار.. تنبّهت الصبيّة وبكت، ثم هرعت نحو أمّها لائذة بها:

ضمّتها الأم مثل نائمة إلى صدرها، كانت المرأة في مكان آخر، وجسدها هو الحاضر هنا، بدأت تحسّ بارتباط روحها بجسدها قالت لابنتها: رأسي يؤلمني.. مفاصلي، أريد أن أنام..

نظرت الصبيّة إلى وجه أمّها الأبيض الشاحب وسمعت أنفاسها.. وتثاؤبها.. هذه ليست أمّها التي تعرفها، هذه شبيهتها الأخرى، قال الشيخ: سأزوركم ليلة الجمعة.

قبل هذا ولدت أم بدور أربع بنات: بدور ولبيبة ومهجة وكريمة..

قال الأب: سيتقاسم الأهل والأغراب لحمي وبناتي وبستان النخل والبيت ودكان التبغ وماكنة الطحين..

أشار عليه الرجال: تزوّج يا رجل... لعلّ الله يهبك الولد الصالح..

بكت أم بدور، بكى هو حين اختلى بنفسه، كان يحبّها، وهو لا يريد أن يفعل بها مافعله أبوه بأمّه حين هجرها من أجل امرأة جميلة، كلا.. لن يهدر بناته.. لن يتزوّج.. لكنه قد يفعلها إذا يئس من إنجابها لصبي.. بوسعه الإنفاق على بيتين، وامرأتين وأسرتين، ولن يخالف بذلك شرعاً ولا عرفاً..

قالت له أم بدور: هنّ بناتك، وأنت الباذر الزارع والأرض تنبت مايبذر فيها..

وصمت الرجل، ولم يعد إلى هذا الحديث، ولجأت إلى المشايخ وزارت أضرحة الأولياء الصالحين وذبحت الأضاحي ونذرت النذور وطلبت منه أن يذهب إلى الشيخ عبد الدايم الذي عرفه الناس بكرامات مشهودة..

قال له الشيخ: اغتسل وتوضّأ واقرأ سورة الفاتحة وآل عمران والنساء، وصلِّ الفرائض والنوافل، واحضر عشاء إلى ضريح الشبلاني لمدة أسبوع وفي ليلة الجمعة أرسل امرأتك مع ديكين أسودين وخبز السمسم والعسل، فإذا بلغ الليل منتصفه ورأيت الثريا تتوسط السماء وتدخل برج الحمل، وبنات نعش ينحدرن نحو المغيب فقم إلى امرأتك فإنّ الله عندئذ سيبارك بنسلك..

ثم قال له: يا رجل أطعم امرأتك أطايب الأطعمة القوية وانْذُر منها لوجه الشيخ الشبلاني، امرأتك ضعيفة فاشتر لها حوائج الخروف وكبده،

وبيض الإوز وكبد الأرانب، أمّا أنت فلا تأكل سوى بيض السمك، إنقع بيوض السمك في ماء الورد وخل العنب وتناولها لسبعة أيام...

أوصى الرجل السمّاكين بجمع بيوض السمك عندما يفتحون أجوافها وينظِّفونها من الأحشاء.. وبذل مالاً كثيراً لشراء أكباد الأرانب..

إمتلات الغرفة بالروائح الصباحية، واكتسح ضوء الصباح القوي الغرفة وسقطت بقع مستديرة من النور المرتعش فوق الطين والحصيرة الدبقة وقدمي بدور ورأسها.

دبّت حشرة على ساقها فارتعبت، ونهضت، رفعت ثوبها فوجدت نملة صغيرة فوق ركبتها، ورأت خطوطاً طويلة من الدم المتيبِّس المتقشِّر على باطن فخذيها النحيلين.

- هذه حنّة الملائكة التي حدّثتني عنها جدّتي... خافت، ولسعها ألم متماوج في أسفل بطنها وكظمت ألمها، ثم تدحرجت على الأرض متصلِّبة وهي تضغط بأسنانها على شفتها المزرقّة..

وحملت الأم، وأحضر لها الرجل ما اشتهت من ثمار البساتين وثمار الجبال، اشترى من عزيز الكردي الجوز الجديد والفستق والجبن الجبلي الدسم الممزوج بالثوم والأعشاب العطرية القوية، اشترى لها الكمأه من بائع إعرابي جوّال، كما اصطاد لها الحمام والدراج، ..

أولموا وليمة للشيخ عبد الدايم واقترح الشيخ أن يقيموا ذكراً ويحضروا المشايخ الآخرين ومريديهم إكراماً للوليّ الشبلاني وليبارك البيت بأصوات المدائح والذكر العطر..

قبل الغروب وصل القرية النائب الآخر المتورّد الوجه، وتجمّع حوله الرجال المخيبون وتقبّلوا لومه وعتبه بصدور رحبة، وأبدوا له الأسف، والندم لكنه قال لهم:

– حسرتم المصنع، جحدتم نعمة الله وجرى أكثركم وراء السراب فانتخبتم من لا خير فيه ونسيتم محمد غلام الشريفي..

قال كبيرهم: لا بأس يا مولانا، الخير فيما اختاره الله.. ولعل الله سيعوّضنا في الانتخابات القادمة فتفوز أنت..

ضحك الرجل الآخر ساخراً وقال: الانتخابات القادمة؟ أنتم سذّج حقاً، قد تسقط الحكومة خلال أيام قليلة.. ألم تسمعوا ما يحدث في العاصمة؟..

فزع كبير القرية وقال: هذا مستحيل، كيف تسقط حكومة الباشا، قهقه النائب المهزوم وقال: لا مستحيل إذا أراد سادتنا شيئاً، هل قمت بشراء ماكنة الطحين من الرجل كما وعدتني؟

– كلا.. لأنّه رفض بيعها وسيشغلها ابن أخيه..

– إذا عاد ابن أخيه من النفي.. ! وإذاً سننصب ماكنة جديدة على الأرض التي ستبيعها لي... وبذلك نمنعه من تشغيلها..

– أخشى أن لا يسكت الرجل... إن...

قاطعه النائب: ماذا سيفعل؟.. يشكونا؟ إلى من يشكونا؟ إلى الحكومة؟.. نحن الحكومة !.. أتراه سيجرؤ على الوقوف متحدّياً كما فعل عبد الوهاب حين أغلقنا مكتبته وأحرقنا كتبها؟.. أين هو عبد الوهاب؟.. في سجن صحراوي مثل كلب منبوذ.. هيا أرسلوا من يدعوه إليّ فأعرض الأمر عليه..

– لن يحضر، إنّه يقيم ذكراً هذه الليلة، ولديه ضيوف من قرى بعيدة من المشايخ والدراويش..

– إذاً استدعوا يامين ابن نعّوم اليهودي.. سأسلّمه المطحنة الجديدة

ويقوم ببيع الحبوب وطحنها ولن تشتري القرية حبوباً من أحد سواه ولن يجرؤ أحد على الوصول إلى مطحنة ذلك الأهبل، أمّا إذا خطر لأحد أن يخالف هذا أو أن يحرّضه المخرّبون فسأقطع الماء عن النهر عند السد وأجففكم أنتم وبساتينكم ومزارعكم..

قال كبير القرية: أنت وليّ نعمتنا، مولانا، ولم يولد بعد من يجرؤ على مخالفتك..

عندما أخذت أم بدور خمس كيلات من الطحين من مخزن الغلال في حوش البيت المجاور للبستان وأغلقت الباب بالرتاج الخشبي، نسيت القطة السوداء في الداخل وهي تتربص بفأر عاث فسادا في الطحين والقمح... وإذ ظفرت القطة به، لاعبته أولاً، ثم عابثته بعنف وأرعبته، وأنشبت مخالبها في لحمه، وتشمّمت دمه، وهاجت شهوتها الوحشية والتمعت عيناها في الظلمة وازدردته بسرعة، وتلمّظت ثم مسحت جوانب فمها بطرف لسانها وتثاءبت، وحاولت الخروج دون جدوى، . تشبثت القطة بالباب، قفزت نحو الكوة العليا قرب السقف وسقطت في الدقيق، خمشت أكياس التبن ونثرت كتل اللبن المجفف وحفرت الأرض وماءت وتوسّلت دون جدوى.

قالت بدور: كيف سأذهب إلى مالك، وهذا الألم في بطني؟ إنّه ينتظرني تحت شجرة التين قرب الجبل، آه... منذ متى ومالك ينتظرني تحت التينة البعيدة وأنا أنتظر أن يفتحوا باب حجرتي ويدعوني أذهب إليه...

بكت، وتعالى نشيجها، ثم مزّقت أطراف ثوبها وعضّت على اللحاف بأسنانها، كانت تفعل مثل هذا في كل الليالي وترجمهم بكتل الطين المجففة التي تكوّرها بيدها وترصّها عند أسفل الجدار: مستودع ذخيرة للدفاع والهجوم..

كم مضى من الزمن وهي محبوسة هاهنا؟.. إنّها لا تعلم.. ولكن أختها الخامسة ولدت منذ سنوات بعيدة، وكبرت، أسموها نجمة وهي الآن صبية كبيرة، وفي عينيها نار مرعبة تشبه النار التي تتقد في عيني الشيخ عبد الدايم، ولها أنف يشبه أنفه الأقنى.. الشيخ عبد الدايم، إنّه يسكن في خبزهم ودمهم وظلالهم.. وهم لا يتوقفون عن إمداده بالهبات والنذور والأضاحي، وبعد أن توقف العمل في ماكنة الطحين وهدّد الأب بحرق المطحنة إنْ هو شغّلها...

انصرف الناس عن ماكنة الطحين الأخرى بسبب القحط وقلة المال وخوفاً من تبدد قبضة حبوب، صاروا يطحنون حبوبهم بالرحى في المنازل.. كانت بدور وأمّها تتناوبان على الرحى في ليالي القمر، عندما يفتر الحر، وتهبّ نسمات العشيات محرِّكة قمم النخل وأشجار التوت..

قالت الأم: أحضري يا بدور التمر المكبوس من المخزن لنصنع الحلاوة للذكر..

سجرت الأم التنور وخبزت عجينها الذي اختمر وتضاعف في إناء النحاس، وفرشت البنات الأبسطة والحصر وملأن الفوانيس بالنفط ونثرت الوسائد قرب الجدران..

أضافت الأم الفلفل ومسحوق جوز الطيب والدارسين إلى لحم الحملان الصغيرة الأربعة التي اشترتها من قصّاب اعتاد ذبح الشياه المعشرات في هذا الموسم عندما يمتنع سواه عن الذبح، وكان يستخرج الأجنّة البيضاء ذات الغضاريف واللحم الذي يشبه زلال البيض المسلوق من أرحام الشياه الذبيحة ويبيعها، كانت الحملان الصغيرة العمياء ساخنة تفوح منها روائح الظلمة الجنينية ومياه الأجواف الحية، عندما رأتها بدور في القدر الكبير خافت، وارتعبت..

سمعت جدتها قبل سنوات تقول: حرام أكل أجنة الحيوانات التي تؤخذ بعد ذبح أمهاتها.

قال الشيخ عبد الدايم، حلال أكلها فقد ذبحت وسمّي عليها بذبح أمهاتها .. وأجاز أكلها..

خافت بدور من تلك المسوخ التي لا شعر لها، المغصنة الملساء.

وأقسمت أن لا تتذوّق لحمها قط، وشعرت بالغثيان وهي تشم رائحة اللحم تتصاعد من القدر الكبير على الموقد الملتهب. كرهت بدور اللحم والشيخ عبد الدايم وأمّها التي تقتل الحملان الصغيرة وتذكّرت جدّتها...

وصلت المخزن وهاجمتها روائح الخزين، السمن واللبن المجفف والخضار اليابسة والتبن الرطب والقمح والدقيق. سحبت المزلاج الخشبي ودفعت الباب مرة واحدة فقفزت القطة عليها واصطدمت بصدرها وعنقها وخدشت جلدها، صرخت بدور ثم سقطت مغشيّاً عليها عند باب المخزن..

عندما أبطأت بدور جاءت الأم تستطلع الأمر فوجدتها ملقاة على الأرض وقد تخشّب جسدها الصغير وبردت أطرافها، نادت الأب وحملاها إلى الإيوان واستدعيا الشيخ عبد الدايم من بين الضيوف، قرأ الشيخ أدعيته وعزم عليها ومسّد بأصابعه اللينة جبينها ووجهها الفتي وعنقها.

قال: البيت مسكون، ويجب أن يُبخّر كل مساء وتُقام فيه الأذكار البنت هاجمها جنّي شرير..

ضربت الأم صدرها بيدها، وأخذت كفّي الصغيرة بين يديها دثرتها ففتحت عينيها ببطء وعندما رأت وجه الشيخ وعينيه المتوهجتين صرخت فنهرها الشيخ:

- إخرس أيّها الجنيّ اللعين، إخرس وإلّا ضربتك.. أخرج من رأس هذه الصبيّة.. أيها اللعين أخرج..

صرخت بدور صراخاً متواصلاً، فضربها الشيخ، صرخت، وضربها حتى همدت وخارت قواها وغابت عن الوعي. مرّة أخرى، أقيم الذِّكر وعلا نقر الدفوف وضرب الصنوج وقرع الجلاجل وبُحّت أصوات المدّاحين وسقط المريدون مغشياً علهيم وسط الحلقة مثل طيور منهكة.

جلست البنات قرب أختهن الغائبة عن الدنيا بينما انصرف الكبار من الأهل والجيران إلى سماع المدائح والأذكار..

وفي صباح الجمعة بعد ليلة الذكر طرق "يامين" ابن نعوم اليهودي باب البيت وعرض على والد بدور أن يبيعه الطاحونة المعطّلة.. رفض الرجل، قال يامين: إذاً لن تشغّلها بعد اليوم.

قال الرجل: هذا شأني، وأنا أتصرّف في أملاكي مثلما أريد..

- هذا أمر أبلغك به، فإن أردت السلامة إلتزم به.

عاد إلى امرأته يضرب كفّاً بكفّ وقال: ضاعت الطاحونة يا ابنة العم..

- لا تيأس، البركة فيك، لدينا البستان ودكان التبغ ووكالة التموين..

- سحبت الوكالات وأوقف العمل ببطاقات التموين وتبقّت لدي البنات، وبدور التي صرعها الجن..

بعد أشهر تحسّنت صحة بدور. ونسيت القطة السوداء..

وولدت الأم بنتاً خامسة أسموها نجمة ونسي الرجل فكرة الزواج

بل ألغاها بعد أن اضطربت أحواله، وعندما شبّت الفتيات لم يتقدّم أحد للزواج منهن مخافة أن ينجبن الإناث، وخَشية من إرث الجنون..

عندما زار النائب "مدحت الكهلاني" - الذي صافح اليد الملكية- القرية عقب فوزه هاجمه الرجال عند طرف القرية. كان مالك ابن عم بدور معهم، وبعد يومين ألقي القبض على الرجال ونفي مالك مع بعض الشبان إلى قرية نائية تنام منذ قرون على حافة الصحراء والنسيان..

وظلّت بدور رغم مرور تلك السنوات تنتظر عودة مالك وترنو إلى وجهه وعمدت الأم إلى تزويج ابنتها لبيبة من شاب إعرابي لأهله معرفة قديمة بالأسرة، كان يأتيهم ليتزوّد بالتبغ والشاي والسكر لمضيف والده، وأسكنته في إحدى حجرات البيت ونقلته من الخيمة إلى القرية، وسعت إلى تزويج مهجة من شقيقه، ونجحت، وصارت الحكاية موضع تندّر الناس: أم بدور اشترت لبنتيها رجلين من الاعراب والوالد يرتضي بكل ماتشير به المرأة.

كان عالم مالك في تلك القرية النائية عالماً مختلفاً، يابساً، مجدباً، ومالك بين الغرباء لا يأكل إلّا القليل، ولا يتكلّم ويعمل أكثر من الجميع. عمل في البناء، والحدادة، والزراعة، وتعلّم الكثير عن الحياة وأحبّ بدور التي صارت شابة رائعة الجمال، أحبّها أكثر من أي وقت مضى، وأصبح الرجل الذي يتوق إلى دفء امرأة هي ابنة عمه، وينظر إلى النساء القرويات الغريبات بعيني الشهوة الذكورية المجرّدة، ثم لا تلبث بدور أن تقف بينه وبين كل النساء ويسطع وجهها القمري فتنطفئ كل الوجوه.. وقرّر أن يجمع كل مايحصل عليه من المال ليشتري سيارة نقل ويعمل بها بين المدن ويسافر فيها مع بدور إلى كل انحاء البلاد، في الأماسي كان يقف على حافة الصحراء ويحدّق بالأفق ويقتسم مع صحبه الذين أحبّهم الأسرار واللقمة والأسى والشوق وملامح

الرجال الناضجين والمرح القليل المتاح لمثلهم.. كانوا يتغنّون بأسماء محبوباتهم السمراوات الصغيرات اللاتي غدون الآن شابات، يغمض مالك عينيه الواسعتين الحزينتين ويحلم بالبساتين وبدور التي تفوح منها رائحة القرنفل والورد. ويأخذها إليه مثل طائر القطا الصغير الخائف الوحيد، ويرشف من عينيها الضوء ومن قمح وجهها القوت ومن أنفاسها نبض حياته كلها..

في طرق البساتين كان يلتقيها، طرق غامضة محفوفة بأشجار التوت والصفصاف والحور وحفيف الأجنحة وخرير مياه العيون السرية ويهمس لها بكلمة أو يمس كتفها بإصبعه فتتوهّج وجنتاها ويرتعش جسدها كله وتصير بستاناً نائماً على ضفة النهر وجدولاً ينساب إلى النهر وطائراً يغمس جناحيه في ماء النهر.. يسرع كلاهما.. هما الصامتان، العاشقان، المنتشيان كل في اتجاه معاكس. أحدهما إلى الحلم والآخر إلى البستان ويضيعان معاً في البيتين والبساتين والقرية: ويجمعهما حلم واحد مستحيل...

سنوات طويلة مرّت، طحنها غول الزمن بين أنيابه ونثرها غباراً على وجه بدور العذب الذي صار وجه الألم والدم والرعب والجنون..

يوم عاد مالك إلى القرية. حلّ العيد في قلب بدور..

أتى بسيارة جديدة اشتراها من بغداد، سيارة لامعة ذات هيكل خشبي ونوافذ لها زجاج متحرّك.. وقد كبرت بدور لم يعد الليل يخيفها، ولا القطط السوداء ولا عينا الشيخ عبد الدايم ولا غرابة أختها الصغرى نجمة التي تختلق حكايات غريبة وتأتي بأشياء وأفعال لا تخطر على بال: بيوض عصافير زرقاء، محار من شاطئ النهر وثمار في غير أوانها، وخرز عجيبة، وتقتل الضفادع والطيور الصغيرة، دون أن يرف

لها جفن وتمسك بالكباش من قرونها وتمتطي ظهورها، وترمي بذور النارنج في النار وتسطع عيناها بوميض وحشي وهي تشم رائحة الدخان المرّة تتصاعد من الموقد، أو هي تستخرج أجنّة البيوض بعد أن تكسر قشرتها بيدها، وتنام مثل الذئاب بعينين نصف مفتوحتين وتسير وهي نائمة وتدخل البستان الملحق بالدار وتجول بين أشجار الليمون والبرتقال والنارنج والتفاح وتهرب الأفاعي من طريقها، وترتعد الأبقار، وتعوي الكلاب وعندما يزور الشيخ عبد الدايم البيت تهرع إليه تقبّله وتلوذ به وتسعد بوجوده وينطفي ومض عينيها إلى حين أمام نار عينيه..

قال الأهل: سنزور ضريح الولي الجديد الذي ظهر في قرية عند جبال حمرين، نحمل النذور ونقدّم أضحية لسيارة مالك الجديدة. وقال مالك سأحمّلكم جميعاً فيها، بيت عمي وأهلي والجيران، تذكر بدور بوضوح كل تفاصيل المكان: النبع الرقراق، وغيضة أشجار التين الكثيفة، والضريح الحجري والقبة الخضراء والأكف المدماة ولطخات الحناء على الجدار، وخيام الزوار وأمتعتهم، قبل الرحيل ذهبت بدور إلى البستان، وعند المنعطف التقته، حاذاها مالك ولثم خدّها بسرعة ومضى عنها. توقفت مذهولة، وكادت أن تهوي إلى الأرض لشدة انفعالها، تساقطت بضع حبات من التوت الأحمر وعناقيد عنب الذئب السوداء من سلّة بدور فوق التراب الناعم البارد في الظلال، خيّل إليها أنّها تحلم مثل كل المرّات السابقة، لكنّها وجدت آثار قدميه على التراب وحبّات التوت وعنب الذئب.

تجمّعت النسوة في المقاعد الخلفية للسيارة ذات الهيكل الخشبي، كن ينادين أطفالهن ويؤنبن رجالهن ويحملن سلال الطعام وحزم

الأبسطة والأحرمة الصوفية والنذور. مبهورات بالسيارة الجديدة، وقد أصاب بعضهن الغثيان عندما فاحت رائحة البنزين من محرك السيارة، وشحبت وجوههن.. قبل الغروب بلغوا الضريح المنشود وهبّت عليهم ريح طيبة من جهة غيضة التين، نصبوا خيمتين واحدة للرجال وأخرى للنساء والأطفال، وأوقدوا نيرانهم مثل قبيلة من الغجر، سخّنوا الأطعمة وهيّأوا الشاي وفرشوا الأبسطة أمام المواقد ثم قدّموا حصّة من كلّ شيء للقيّمين على الضريح..

ضجّت النساء عندما هبطت سحابة سوداء على حافة الجبل وما لبثت أن هبّت عاصفة مفاجئة، أطفأت النار، وكادت تقتلع أوتاد الخيام والسقائف فتمسك الزوّار بها واحتموا بها مثلما احتمت بهم، وعمّ الظلام المكان كلّه بعد أن انطفأت الفوانيس والنيران..

أوقف مالك سيارته وراء الخيام، فزعت بدور من العاصفة وتمسّكت بمقبض باب السيارة ريثما تضاء الفوانيس ويعاد إيقاد النار..

قال مالك: بدور هيا، تعالي معي..

ارتعبت وكادت تصرخ عندما سحب يدها وسار بها في الظلام وتبعته مسحورة لا تدري إلى أين.. قال لها: أريد أن أحدّثك.. تعالي ووثب قلبها في صدرها وارتعشت ركبتاها، وصلا الجدار الخلفي للمرقد وقال لها: قفي ها هنا، تطايرت أوراق التين الجافة وصفعت الجدار والجسدين الواقفين وتهشمت تحت أقدام مالك، زحفت حصاة تحت قدمه فانزلقت وهوى نحو الأرض. مدّت يديها لنجدته فاحتضنها، همست: مالك.. مالك..

وبحث فمه المجنون عن فمها المرتعش، وأطبق عليه، سحبها نحو الجدار فدفعته عنها، ضربتهما الريح بوابل من الورق الجاف والرمل،

فـأدارا وجهيهما إلى الجدار، قال: إهدئي، أيّ حركة منك تفضحنا، قاومته لكنّه أمسك بها بين ذراعيه بقوة وهمس لها:

– أريدك، كل تلك السنوات وأنا أريد وأنتظر هذه اللحظة – إسمعي يا بدور، أبي يرفض زواجنا ويريد أن يزوّجني لابنة رئيس القرية:.. لهما مصالح مشتركة ومطامع..

– وماذا ستفعل؟..

– أتزوّجك، ونهرب بعيداً عنهم، هل تأتين معي؟.

– إلى أي مكان تشاء... ولكن دعني الآن.. دعني..

– متى إذاً؟ أريد ان نهرب الساعة، ونذهب إلى بلد بعيد هذه الليلة..

– دعني الآن.. ليس الآن..

وعانقها ثانية فاستسلمت لعناقه، وأحسّت للمرة الأولى في حياتها أنّ هناك ضوءاً يمكن أن يخترق القلب، وبرقاً يضيء الرأس، أحسّت أنّ الجبل يتقدّم إليها، والنبع ينساب تحت قدميها والعاصفة تتوقّف عندها فتموت الأصوات والأمكنة والمسافات.

همس لها: بعد منتصف الليل، تأتين إلى السيارة، تيقّني من نومهم جميعاً وتعالي، وسنهرب.. أنتظرك يا بدور..

خُيّل إليها أنّ شخصاً ما كان ينصت إليهما وينظر من كوّة في جدار المرقد.. وجهاً يشبه وجه الشيخ عبد الدايم.. رفعت رأسها لتتبيّن الأمر فاختفى الرأس في الظلمة..

انسلّ مالك من جوارها وبعد قليل تحرّكت وساقاها ترتعشان...

هدأت العاصفة قليلاً. وصلت بدور إلى الخيمة، أعادوا إيقاد النار،

وأشعلت الفوانيس فأضاءت بعض وحشة الليل، في عينيها كانت نظرة ذاهلة وبريق جديد، وفي جسدها خفقة تنبض بين لحظة وأخرى ثم تبطئ، ثم تخفّت، ثم تتلاشى.. رأت أمّها وجهها الشاحب وشفتيها الراجفتين:

– بسم الله الرحمن الرحيم ما بك يا بدور؟..

لم تنطق بدور كانت مثل ورقة تين خضراء مختنقة بالنسغ، إذا فتحت فاها تفجّرت وأغرقت ما حولها بالحليب الأبيض، أحسّت أنّها ورقة تين، وثمرة تين فجّة خضراء.. قوية، لم تنطق بدور بشيء..

ظلّت صامتة وعيناها تحدّقان في ذيل العاصفة المنسحب وراء جبل حمرين وفي غيضة التين التي تراجعت بعيداً وفي الجدول الذي أخفى ماءه بين الصخور، هزّتها الأم، وصاحت: تكلّمي، قولي ما بك؟.

لم تتكلم، .. أتت بطاسة ماء وسقتها.. هل أخافك أحد؟..

كانت شفتاها مطبقتين رغم ارتجافهما، وعيناها رغم الظلمة تبرقان وتسترقان النظر بين لحظة وأخرى إلى السيارة.. الرابضة مثل وحش أسود وراء الخيام.. بعيداً عن الضريح.. عندما قبّلها همس لها "أنا اقترحت على الأهل فكرة الزيارة لنهرب.. هناك لا نستطيع اختراق القرية، أمّا هنا فليس بوسع أحد اللحاق بنا.. ".

أخذتها الأم إلى الضريح، قرأ الشيخ رقاه وأدعيته، وحدّق في عينيها البرّاقتين، قال للأم "البنت مسحورة" صرخت بدور وهربت نحو السيارة وألقت بنفسها أمامها، أسرعت الأم والأب إليها وتبعتهما النساء ونزل مالك من سيارته..

همست امرأة عمّها: عاد إليها الجنيّ..

قال مالك: كلا.. ما بها شيء، وليست مجنونة... أنا..... وصمت عندما نظرت إليه ضارعة أن لا يقول شيئاً..

قالت أمّه: أنت لا تدري ياولدي.. أرأيت.. أصدّقت؟ إنّها مجنونة..

حملتها أمّها يساعدها أبوها إلى الضريح وهي شبه مغشي عليها.. لحق بهما مالك وهو لا يدري ما يقول..

أمر الشيخ صالح قيّم الضريح: دعوا البنت هنا واخرجوا جميعاً.

ربطها بسيور من الجلد إلى شباك الضريح وهي غائبة عن الوعي، وبدأ يسوطها بخيزرانة رفيعة: صرخت، صرخت وردد الجبل صدى صرخاتها الملتاعة وعذابها.. نادت باسم مالك وأراد مالك اقتحام الضريح فمنعه الشيخ عبد الدايم، عندما فقدت الفتاة وعيها بعد فترة التعذيب والرعب، مدّدها الشيخ صالح على البساط، وبدأت تنشج وتصلّب جسدها.

قال الشيخ: يالك من جني عنيد.. سأطردك من جسد هذه البنت سأطردك..

صرخت بدور: أبعدوا القطط عن دمي.. القطة تأكل لحمي..

مدّ الشيخ يده إلى جسمها الذابل فأنهضت نفسها وبصقت عليه، صفعها بقوة فهجمت على يده وعضّتها بشراسة وأدمتها.. ضربها ثانية وأصاب عينها اليمنى بخاتمه ذي الفص العقيقي الأحمر فأحسّت النار في عينيها وعوت واستغاثت مثل بهيمة موجوعة..

اقتحم مالك الباب فأمسك به الرجال وأبعدوه إلى سيارته..

ضربها الشيخ وضربها... بكت الأم وأجشهت أخواتها في البكاء..

واقتحمت أختها الصغيرة نجمة الضريح وانقضت عليها مثل طائر جارح وقبّلتها ومسحت دماءها..

همست نجمة بصوت مثل الفحيح يشبه صوت الشيخ عبد الدايم:

– سأنتقم منه، سأقتله، رأيتكما وراء الضريح، وسمعت حديثكما..

– اذهبي ايتها اللعينة، لا أريد أن أراك.. اذهبي.. قالت نجمة: سأقتله.. سأقتله..

صرخت بدور: كلا.. كلا..

كان الشيخ يلتهم عشاءه في الجانب الآخر والجميع خارج الضريح..

وقف مالك ممتقع الوجه مضطرباً ينتظر عمّه لدى باب الخيمة عندما عاد العم من عند الضريح، قال مالك:

– سأتزوّجها يا عمّي وليغضب والدي.. سأتزوّجها..

لن أدع هذا الوحش يعذّبها.. كيف تسمحون له بضربها يا عمي.. هل ماتت قلوبكم؟:

قال العم: الأفضل أن تصمت الآن... أنت لا تعرف أي شيء.. فلا تسبّب لنا المشاكل يا ولدي.. ابنتي لا تنفعك زوجة..

– بل هي لي، ولن يأخذها أحد مني..

– إذا شفيت، لنا حديث آخر..

أجهش الأب بالبكاء، عندها عاودت بدور صراخ الجنون وظلّت تصرخ في صحوها وغيابها منذ تلك الليلة السوداء..

– استلقت الآن على الفراش وفكّرت، وأجهدت رأسها، فكّرت بالزمن، أين هي؟.. ومتى سجنت في غرفتها، كم عاماً يفصلها عن ليلة الجنون

تلك؟.. كم من المرات جاؤوها بالشيخ عبد الدايم ليضربها ويطرد الجن من جسدها المسحور، آه.. إنّها أيّام كثيرة، لاعدد لها.. آلاف الأيام والليالي.. كانوا يفتحون له الباب فيملأ بجسده الضخم فسحة الباب ويحجب النور بعباءته ولا ترى بدور غير عينيه الناريتين اللتين تلسعانها باللهب، ولا ترى سوى عصاه...

كان يربطها بالسيور إلى السرير فتقاومه، وتضربه وتدفعه ثم تستسلم، وتتضرّع، وتبكي.. ويقترب منها الشيخ وتحسّ بأنفاسه الساخنة التي تشبه أنفاس الخيل، ويمدّ أصابعه إلى عنقها كأنه ينوي خنقها. ثم تهبط اليد بسرعة إلى الصدر اليابس والبطن الضامر والفخذين النحيلين فتصرخ وتحاول رفسه وإبعاده عنها.. تنادي أمّها، تنادي أباها فلا يجرؤ أحد على دخول حجرتها.. تحسّ بالغثيان واليد الوحشية تجول على جسدها، وتسري في جسدها رعشة كريهة موجعة، تنكمش تحت جلدها وتبرز عظامها، تعض شفتها السفلى وتدميها.. لمساته البشعة صوته الحيواني، أنفاسه. طلاسمه، رائحة بخوره المتصاعد من المجمرة، تبكي.. فيصفعها ويسحب شعرها بقوة، يتصلّب الجسد المعذَّب وتظهر خطوط دموية بارزة على جلدها وسرعان ما ينزّ منها سائل أصفر مع الدم المتجمد..

بالألم تصير أنثى، وبالألم ينفر نهداها الصغيران مثل طائرين أسمرين، فوق أضلاعها... وبالألم يعلو صوت تنفسها فيستثار الرجل ويلقي بجسده الوحشي على جسدها الشبحي.. ومثل حيوانات الغابات تدافع عن نفسها بالرائحة المنفرة، رائحة الدم والألم والخوف، وتفزعه الرائحة: إنّه الموت، تصبح رائحتها وسيلة دفاعها الوحيدة، فيقوم عنها بسرعة مع لهاث عاره وعجزه، يسوّي ثيابه، ويضع العباءة السوداء على كتفه.. وعندما يستعيد أنفاسه يطرق الباب ثلاث طرقات ليفتحوا له..

عندما بزغ الفجر بعد الليلة الرهيبة عند ضريح الولي الجديد، نهض الذين واتاهم النوم من نومهم، وتحرّك الساهرون بتثاقل من مضاجعهم، أوقدت النيران وغلت أباريق الشاي وتصاعدت روائح التبغ القوي والخبز المحترق وكلّها تفوح بمرارة أشدّ ممّا ألِفَ الناس، شاي مُرّ رغم السكّر الكثيف تبغ مُرّ رغم الجمرة المتوهّجة، خبز مُرّ، رغم القمح الجديد، بيض مر رغم السمن والملح، صباح مر رغم حلاوة النسيم البارد وأنفاس الجبل المعطرة برحيق الأقحوان والشقائق الحمراء.. حملت أم مالك قدح الشاي وصحن الفطور إلى ابنها النائم في السيارة – نادته، فلم يسمع.. نادت ثانية: كم نومك ثقيل يا بني.. ذلك من همّ قلبك يا ولدي

مالك.. مالك..

لم يستفق مالك، صعدت الأم الدرجة الخشبية لباب السيارة وأطلّت إلى الداخل من النافذة، صرخت، كان مالك غارقاً في الدم وقد تهشّمت جمجمته بحجر جبلي ألقي عند قدميه وفاحت رائحة الدم المتخثر على أرضية السيارة وملابس مالك.. صرخت الأم وسقطت مغمى عليها.. صرخت بدور في داخل الضريح ومزّقت ثوبها وصاحت:

– قتلته نجمة، قتلته نجمة..

نهرها أهلها ونهرها الشيخ عبد الدايم:

– هذر مجانين، كيف تقتل نجمة رجلاً بقوة مالك؟

امتزج صراخ بدور وأم مالك وسط ضجة الجمع وانتحاب النساء..

بحثوا عن نجمة، قالت الأم: نجمة تضيع في كل مكان وتظهر دعوها ستأتي..

بحث الأب فلم يعثر عليها في الضريح أو الخيام أو وراء المقام، تردّد صوت الشيخ عبد الدايم: نجمة، يا نجمة، يا نجمة، وجرفت الريح الصوت والصدى، ثم وجدها الشيخ عبد الدايم قرب الماء وسط تفرعات الجداول وهدر الشلالات الصغيرة، كانت نائمة عند حافة الجدول، ميتة أو نائمة، نائمة.. من بعيد بدت مثل نجمة منطفئة سقطت من سماء الليل نحو المياه..

طفت على الماء أوراق التين والشقائق القرمزية وزبد التراب الأحمر، ونجمة على الارض وآثار الماء المزبد ورغوة الطين على قدميها، وحولها فتات أوراق جافة وزهور شقائق مسحوقة وقد علقت بثوبها بذور شوكية وبذور مجنّحة كأنّها الفراشات، وقواقع حلزونية فارغة، انحنى الشيخ عبد الدايم وتسمّع أنفاسها..

قال: نجمة نائمة، لا يقلق أحد نومها.. سوف تستيقظ.. سوف تستيقظ..

وحملها بين يديه، وأرقدها قرب باب الخيمة وقرأ تعازيمه عند رأسها، واصل الآباء نحيبهم الصامت، وولولت النساء وظلّت "نجمة" نائمة و"بدور" تصرخ عند الضريح..

قال أبو مالك: تهيأوا لننقل جنازة مالك إلى القرية وليذهب إلى أقرب القرى من يستدعي سائقاً لنقلنا..

قال الشيخ عبد الدايم: أنا سأقود السيارة..

دهش السامعون: أيعرف الشيخ أيضاً قيادة السيارات؟ تقدّم الشيخ صالح قيّم الضريح ورفع يده:

– لن تؤخذ جثة المغدور من هنا، لقد أراد الله له أن يموت ويدفن عند غيضة التين في هذه البريّة المباركة جوار هذا الولي الصالح..

اقتربت الخطى من حجرة بدور، تحفّزت الفتاة وحملت كرات الطين الجافة استعداداً لرجم القادمين إليها، كانت تسمع ضحكات نجمة وهي تسخر من زوجي أختيها وتطلق نحوهما العجل الهائج فيهرعان إلى غرفتيهما ويغلقان البابين بصمت مثل جملين صابرين، فتسرع إليهما وتدق الأبواب بيدها: وتنادي، تعالا، أخرجا.. لن يؤذيكما العجل.. لقد هدأ، إنّني أعتلي ظهره. تعالا وانظرا..

- كانت حيوانات البيت: مواشيه ودواجنه وعناكبه وسحاليه وأفاعي البستان وضفادع الجدول تنصاع لصوت نجمة وتطيعها، وقد درّبها الشيخ عبد الدايم على الإمساك بالأفاعي فكانت تأخذ أي أفعى وتلفّها على عنقها وجسدها، وتمتلئ بالسعادة، وتتوهّج عيناها وهي تحس ببرودة ونعومة الجسد الأفعواني على جلدها.. تتأوّه نجمة وتنطق بكلمات تشبه الطلاسم ثم تطلق الأفعى فتنسلّ بهدوء وتزحف أمامها مثل المخدّرة وتختفي في دروب البستان..

وتهامست النساء: نجمة يدها مباركة، وقصدتها العواقر والعوانس والعاشقات والعجائز، ولكن من دون أن يعلم أبوها، وأخذن قطعاً من ثيابها الخلقة يتباركن بها، وبدأوا يأخذونها إلى العرائس تقرأ طلاسمها عند رؤوسهن قبل أن يدخل العريس، ويأتون بالمواليد ليضعوهم في حضنها برهة من الوقت تباركهم وتحميهم من الشرور.

اهتزت مكانة الشيخ عبد الدايم قليلاً، وصار يستدعي نجمة وأمّها إلى ضريح الشبلاني ويقوم بتعليم نجمة أنواع الرقي ووسائل الشعوذة.. كانت نجمة تضحك منه وتقول:

أعرف ما تريد ياشيخ عبد الدايم، أتظنني لا أعرف؟

فيزجرها، أُسكتي يا بنية.. أنت لا تعرفين..

قال لأمّها: دعوا الفتاة لي وسأخصّكم بنصف أرباحي، جنّ الأب، ورفض عرض الشيخ عبد الدايم وهدّده إن لم يترك نجمة وشأنها فإنّه سيطلب طرده من القرية .. قال الشيخ - كيف ستعيش أيها الرجل، .. وأمامك الرزق الذي فتح أبوابه الله، والدكان صار خاوياً، وماكنة الطحين عاطلة؟

قال الأب: رحل يامين اليهودي وترك المطحنة، سأشغل ماكنة الطحين، تعب الناس من تدوير الرحى، والطحين الخشن، مازلت قادراً على العمل..

قالت أم بدور: في هذا العمر؟ أنت متعب يا أبا بدور..

قال: لا بأس.. سأعمل..

أطرق الشيخ وعلى وجهه سيماء المخذول وبعد برهة رفع رأسه وقال بأسى:

- وترفض الرزق الهيّن الوفير الذي أرسله الله لنا من دون الناس أجمعين: نجمة وبركات نجمة؟

قال الأب: عجّل بشفاء بدور ياشيخنا، فالسنوات تمر والبنت سجينة حجرة الجنون..

- لا تبخلوا بالنذور والأذكار..

- نحن لا نبخل، ولكنك عجزت يا شيخنا،

- لم أعجز، وسترى، ستشفى بإذن الله، وبركات الشيخ الشبلاني..

دخل والد مالك مسرعاً وهو يصيح: الله اكبر، سبحان الله، سبحان الله أسمعتم، أسمعت يا شيخنا، أسمعت يا أخي... ؟... مالك... مالك... سبحان الله.

قال أبو بدور: مابه يرحمه ويرحمنا الله؟

- ظهر لأحد الدراويش في المنام.. وكان يرتدي ثياباً بيضاء ويقرأ القرآن.. ويقف فوق القبر وحوله الطيور تَحفّ به، وعلى ضريحه قبة خضراء وعند رأسه شموع مشتعلة والناس يطوفون حوله..

قال الشيخ عبد الدايم: سبحان الله، ظهر ولي جديد، سبحان الله هذه نعمة ما بعدها نعمة يا أبا مالك.. بارك الله بعائلتك ونسلك، هذا ولي من أولياء الله الصالحين - سأذهب اليه.. سأذهب اليه..

- سأذهب معك يا شيخنا، سأقيم جوار ابني.. سأبني له القبة والضريح، وأنام جوار جسده الطاهر وأتبارك بتراب ضريحه.

- وسأكون أنا الشيخ عبد الدايم قيّم الضريح، هيا يا أبا مالك.. هيا..

قال أبو بدور: ولكن من أخبرك يا أخي؟..

- الدرويش نفسه، جاء يسأل عن الشيخ عبد الدايم وسمعته يحدّث الناس بما رأى..

قالت نجمة: أنا أعرف كل هذا يا شيخ عبد الدايم..

نهرها الشيخ وأخذها بعيداً عن أمّها وأبيها وعمّها وقال لها: إذا جئت معي، سأشتري لك الثياب الجميلة وخلخالاً من ذهب وسواراً.. و..

قاطعته: وإذا لم أذهب معك؟

- سأحبسك مثلما حبست بدور وأضربك.

- احبسني وسنرى. أنا لا أريد أن أترك بدور. أحبّها. إنها تناديني وتحبّني..

صرخت بدور: خذوني إلى الجبل، أريد مالك أريد أن أذهب إليه.. أريد مالك...

دخلت نجمة حاملة الطعام إلى أختها، قالت:

- سآخذك إلى مالك إذا سمعت كلامي...

- سيأتي الشيخ هذه الليلة وسيضربك وعندما يقترب منك لا تخافي.. لا تبعديه عنك..

- لا أريد.. أنا أخاف منه، أكره رائحته.. أكرهه.. وأخذت سترة جدّتها وضمّتها إلى صدرها وأخفت وجهها فيها وبكت: أخاف.. أخاف.. إنّه يؤلمني..

- سنذهب أنا وأنت إلى النهر وأريك الطريق إلى مالك.. فركت نجمة الطين عن جسد أختها غسلت وجهها وعنقها بالصابون المعطر وضفّرت شعرها.. أنت الآن جميلة سنذهب إلى مالك بعد أن يأتي الشيخ...

قال الشيخ ونجمة تحمل الفانوس وتفتح الباب: أين أمّك وأبوك؟

- ذهبا لوداع عمّي، سيرحل إلى قبر ابنه مالك..

- دفعها ودخل: هيا افتحي باب بدور بسرعة.

فتحت الباب ومن دون أن يلحظها اختبأت وراء الصندوق في الزاوية حمل سوطه المجدول وضرب بدور، ضربها حتى تخدّرت بفعل الألم، وخارت قواها... اقترب منها، شمّ رائحة الصابون وعرق الفتاة الموجوعة، وارتمى عليها وهو يلهث لهاث شيخوخته. أسرعت نجمة وألقت على رأسه سترة الجدّة واعتلت ظهره مثلما تعتلي ظهور الكباش والعجول وشبكت أصابعها القوية حول عنقه الغليظ، رفس الرجل، رفس وصرخ، كتمت السترة والفراش صوت صراخه الضعيف، أطبقت يديها على عنقه بقوة، بقوة... قالت لبدور: ساعديني.. اصعدي على ظهره... صعدت بدور المرتعشة، وأحسّت نجمة بجسده يتراخى وسمعته يحشرج

ويطلق صرخات واهنة... ثم شهق وتراخت يداه المتشبثتان بحاجز السرير.. نهضت عنه، قلبته، كان وجهه أزرق وعيناه شاخصتين، أحضرت الثور الكبير وقالت لبدور ساعديني.. حملتا الجثة وربطتاها بالسيور التي كانوا يربطون بها بدور وأمرت الثور أن يذهب إلى النهر وفتحت له الباب ووقفت تنظر إلى نهاية الطريق الموصل إلى النهر في الظلمة. عندما هبط الثور إلى الماء واختفى، عادت نجمة وأغلقت الباب ونامت في سريرها.


عشاء لاثنين

المساء واقفة عند العتبة الفاصلة بين السلام الداخلي للبيت وحرائق الحرب عند الحدود.

بعد ساعة وربما أكثر أو أقل سيأتي يونس من الجبهة، ورغم أنني ألفت الانتظار منذ زمن، إلّا أنّني - هذا المساء - صرت أكثر استعداداً لتقبّل الأفكار الحزينة والمفاجآت مني لامتلاك الفرح، ترى هل سيعود حيّاً؟؟

يكتمل المساء، يصير حقيقة تلمس وترى، فأزداد رسوخاً ولكني أمسي أعمق حزناً وأشدّ قلقاً، فمع المساء أجدني وسط يقظة المشاعر المتضاربة التي يجدر بي أن أكبحها، أريد يونس، أريده أن يأتي، وأشفق من مجيئه مصاباً أو شهيداً. ليأت لي سالماً ونكمل حياتنا في سلام وننجب أطفالاً ونمضي في الزمن..

إنّني خائفة، وشيء ما ملتبس وغامض يهبط إليّ من غيب الزمان، وشيء مضيء وباهر ينبثق من الأرض القديمة ويصعد إلى جسدي ورأسي، وبين الشيئين أنطفئ وأشتعل في تجربة الانتظار المريرة..

في المساءات السابقة، كنت أنتظر داخل البيت، ألمي محايد ولهفتي عاقلة ولكن، عندما صار المساء ذهبياً يلوح مثل آلاف البروق الواعدة، صار وجعي ممضاً، وقذف بي إلى الحديقة وباب البيت وأثقلني بتوقّعات وآمال ومخاوف...

أعددت عشاء لاثنين، وصول يونس عيد استثنائي لقلبي، بعد أن قضيت العيد في وحشة البيت وحدي وأخذت أتعرّف إلى معان جديرة بالتقدير في حبّنا، بداءات جديدة تنبثق من تجربتنا في هذه المحنة المريعة يوم سلبوا مني يونس وأرسلوه إلى تخوم الموت.

خفقت في الريح رائحة مدينة منقوعة في الرعب، تبلّل أطرافها دموع الأمهات ولهفة النساء تنسج الليل من آهات وعبرات، ويندي وجهها الليل بالأمنيات وأحلام الحياة، تنظر المدينة إليّ، تأمرني أن أتماسك، وأمضي في الحياة كما نريدها، كما يجب أن تعاش..

الآن لا شيء، لا يونس يأتي، ولا أنا أمسك بالشجاعة، والظلمة تزحف نحوي من أعماق الليل تكتسح الطرقات وتبدّد المساء الذهبي.

وحيدة أقف لدى الباب، ألتمع مثل نصل يخترق الليل، لو كان طفلي ولد قبل أشهر لأعانني على احتمال وحدتي ورحيل يونس، لكنه مايزال جنيناً يسبح في دفء جسدي، قلت أنشغل عن كل هذا بمراقبة عالمي: عالم المدينة المرتجفة خوفاً على ديمومتها، ستتوقف سيارة أمام بابي ويهبط منها يونس، سيأتي، لم يكن شوقي وحده وخوفي وإشفاقي من هجمة الموت، بل كانت أشواق الأخريات ومخاوفهن تهيم في الهواء، الزوجات والأمهات والحبيبات ولا أحد غيرهن، قلقي الذي لا أجرؤ على البوح به يجمعني بأولئك النساء اللواتي لا أعرف، يرعش قلوبنا ويزلزل صبرنا و انتظارنا المرير ويخيفنا.

على عتبة بيت مجاور كانت امرأة تجلس، كتلة سوداء داخلة في الليل أو خارجة منه، لعلّها تنتظر أو لعلّها ما عادت تنتظر أحداً فأقعدها القنوط مثل صخرة راسخة لدى الباب. هزّني منظرها الجارح، كانت تشع بقوّة خفيّة قوّة نساء لا يبكين ولا يخشين شيئاً، يغالبن

الحزن ويهزمنه، ويهددن ادعائي لبسالة قد لا أملكها، امرأة غادرها الزمان وأبقى لديها اليأس وحده.

في كل الجهات كان شيء ما يحدث ويتحرك ويرتعش، شيء ما صغير منفصل عن الأشياء الأخرى ومن جميع هذه الأحداث الصغيرة يتشكل حدث المدينة الكبير، تتشكل حركة عالمها الحي وصورتها الظاهرة. العلاقات الداخلية ذاتها بين تلك الأشياء وارتباطاتها واتجاهاتها وتنوّع انتظارات وانشغالات أهلها بما سيأتي..

هنا على سطح البيت المجاور الذي تسكنه أسرة كبيرة رفرفت ملابس أطفال وفتيان وقمصان رجال وسراويل شباب وأرواب نساء يلدن كل عام، ست زوجات يملأن صف المدرسة القريبة بالصغار ويقدّمن فصيلاً من الشباب إلى المجهول، أَمِن أجل كل هذا الموت يحبلن ويلدن؟؟

أوحت لي الملابس بتداخل الأزمنة، ماضي وحياة أجياله التي تصنع ملامح الأيام الآتية وتفاصيل الحاضر، عندئذ ارتعش خوفي: إنّني بين هؤلاء ومعهم وما خوفي إلّا شارة تعلّقي بالمستقبل، سأحتفظ بخوفي، أحترمه وأديمه.

التمعت أمامي مئذنة، تعالى هديل حمائم لاذت بالقبة الزرقاء التي جاورت المئذنة، ثم بغتة انفجر صوت انفجار ولمحت وهج نيران كانت تلتهب في المدى بين الأرض والسماء.

عندئذ طارت الحمائم ورفرفت الأجنحة والملابس وهيمنت رعشة في سكون المساء الملتبس على كل ما حولي.

تمرّ بي الريح، قدماي مغروستان في الأرض لا أغادر ولا أعود لعلّ السيارة الآتية تبزغ من إحدى الجهات...

تدرّبت على الصبر والتوقعات ولم يتبقَّ أمامي ما يدعوني لليأس، أخذت أتابع الحوادث الصغيرة أمامي: خفقت طيور جذلى، ووصلت إليّ مقاطع أغان فرحة ونداءات عشاق مستوحشين، وحفر هلال وليد ابتسامة معدنية في السماء وتناثرت أنوار النجوم الباهتة على صف من أبراج فولاذية كانت خارجة من محطة للطاقة الكهربائية وماضية إلى جهات المدينة، كل الأشياء حولي تتماثل لقوانين الحركة والتغيّر، الأشياء لها خاصية القبول السريع بالتبدلات، أمّا نحن البشر فلنا خاصية التجدد واجتياز المحن، هل نجتازها حقاً أم تحفر خنادقها في أرواحنا؟؟

مذعورة أناور الخوف بادعاء الصبر، غير أنَّ الحقيقة غير ذلك، فكياني الذي يبدو ثابتاً يسحقه القلق، ويعيد الحب تركيبه كل يوم، وبكثافة أشد ويلحمها برحيق حبّي وتعلّقي بيونس..

يونس هذا القادم في كل مرة من حدود الموت إلى الحياة، وأنا التي تختلف عنه في أمور وتوازيه في سواها، لا فرق لدينا سواء كنا متناقضين أو متطابقين فإنّنا لن ننفصل عن بداهة حبّنا، يونس يقيم بكل أهوائه في رأسي وجسدي، وأحسّ بأنّه أرضي وأنّه وطني المهدّد، وفي أحيان أخرى، أراه قيمة وتعاليم أتمسّك بها ووعد مستقبل أتشبّث به، ربما هذا هو الحب، وهذه هي الحرية التي أريد لها أن تغوص في لحمي مثل النبض...

قبل هذا كنا نظن أننا سنعيش في رومانسية ناعمة رافهة مستديمة وأهملنا حقيقة أننا جيل عبرت عليه التجارب، جيل الذين غذتهم المرارة والنار والكوارث والأمل وانبثقنا أخيراً في هذا الزمان وعلى أجسادنا وشم من كل تجربة، وغبار من كل عاصفة وندبة من كل محنة، وهذه آخر تجاربنا تُحفر على جلودنا ورؤوسنا بحديدها الساخن خرائط

وجع مختلف غير التي رسمتها لنا سذاجة حلمنا الرومانسي وطفولتنا الذاهلة.

أشتعل شوقاً وأقضم ثمرة الأمل، أنطلق من وعورة التجارب التي مرّت بنا ومررنا بها، أحدّق في الأفق، يلمّ بي اضطراب مفاجئ، أسمع صوت يونس يتفجّر من داخلي ويلحق به صوتي فإذا بنا: نحن وسط الليل والأخطار والزمن وآمالنا المهدَّدة.

الظلام البارد مرّة أخرى، الظلام الذي جاء من قبل أن يأتي الليل به، يمدّ أصابعه نحو المدينة، يمتصّ النهار، وينشر فوقها غيمة النعاس والمخاوف، ترقد راعشة بين ذراعيه، وأنا مثل نصل انتظار منغرس لدى عتبة الباب أحدّق باتجاه المدى وفي البعد السحيق أرى أثلاماً في أرض وعرة. جنوداً ذوي وجوه صارمة الملامح خدّدها الرعب والسناج وبعض الوحل. أرى سدوداً وخنادق، فوهات بنادق ومواضع مموهة، عربات وناقلات جنود تهدر تحت سماء من حديد منصهر، سماء انطفأت نجومها في جنون الانفجارات والبروق وعلى ضوء اللهب أرى وجهه الحزين مموّهاً خوفه بلامبالاة زائفة، أرى الحب يلتمع في عينيه والتصميم يلوح في صرامة القسمات التي يموه بها حبه، وجه أعبده بين الآف الوجوه، إنّه هو ! مكتملاً وحاضراً أراه وأحبّه، كما هو، وأرى وجهه الذي انتشر عليه الغبار وغضنّه التعب، ساهراً أراه وقد خدّدت جبينه العريض التجاعيد الجديدة، أرى فمه وعينيه وشعره وأصابعه الجديرة بقبلاتي، أرى كل هذه الاشياء العزيزة التي عرفتها جيداً في سلام البيت والحياة، عرفتها باللمس والنظر والحب وكنت أميّزها في زحام الحياة والحلم، في مواجهة الموت أراها، أو عندما ينام في مهجعه متعباً تعبر فوقه إطلاقات المدافع وهدير الدبابات وهو يتساءل: لماذا لست في بيتي ومع امرأتي؟

أراه عندما يظمأ لجرعة ماء فأحسّ في نفسي شهوة مجنونة للماء كأنّني أنا سيدة الظمأ، أشرب كأسين من الماء بنوع من النهم الغريب فأرتوي أصفو وأصبر، أنا لست قوية ولا صلبة، تستدرجني الآلام للبكاء، كلا لن أستسلم فلا يزال أمامي وقت طويل لفعل أشياء عظيمة للحياة غير البكاء، أنا قلقة ولست جزعة، والظلمة حولي تصير عنقاء تضرب بجناحيها الرهيبين وجهي والعالم فأهرب إلى ذكريات الأمس وأحلام الغد. الحياة تتدفق وتغري بأطايب كثيرة وتجري كما اعتادت أن تفعل منذ الآف السنين وتتغير باتجاهات متضادة ولا تتوقف أبداً ولا تكفّ عن النمو وإن التهمت الحرب بعض لحمها...

هيّج المساء فضول بعض النساء، فخرجن متسترات بالظلام إلى أبواب بيوتهن، ونظرت بعضهن إليّ، أشفقن مرّة واستنكرن وعرّضن بوقفتي، وغبطتني واحدة لأنّني أنتظر بلهفة زوجاً قد يعود، بينما فقدت زوجها في أوّل شهور الحرب، تبادلن الكلام، استنكرت كبراهن وقفتي في الشارع، ثم عابت عليهن وقفتهن فدخلن على مضض كارهات..

انصرفن إلى أجواف البيوت ينشغلن بأعمال من أجل الحياة، ناسيات ضراوة الحرب ومطمئنات النفوس إلى الغد ولولا البلاغ الحربي المسائي ماكن ليتخلّين عن انشغالهن بتفاصيل الحياة اليومية لحظة فلهن في الحرب أبناء وإخوة، كن يهيئن ملابس المدارس والأعياد وينسجن صدارات الصوف ويحفظن أطعمة لمواسم قادمة، ويزرعن خضاراً وزهوراً في الحدائق المنزلية، تعالج إحداهن عقمها وتلد أخرى وتحب ثالثة وتمضي بهنّ الحياة بعيداً عن الحرب..

أزاحت كل هذا الذي أراه ذكرى وداع يونس لي عند انتهاء إجازته السابقة، نظرته التي احتوتني مع زمني وأفراحي وهمومي، منحتني القوة وشدّت عزيمتي احتفظت ذاكرتي بحرارة هذه النظرة التي ينتمي

إليها فرحي، وأهتزّ لها وأشتعل شوقاً إليها كل آونة، منحتني فرصة عظمى لاختبار حبّي، فقبل الحرب ما كنت أعرف وما كانت نساء جيلي المدلّلات قليلاً والرافهات، يعرفن عن الحروب إلّا ما شاهدنه في الأفلام أو قرأنه في الروايات، رغم خوضنا لحروب متعدِّدة وكلما عرفنا أكثر، ازداد عزمي لأصنع عالماً طيّباً وأديم الحياة وأراني امرأة تنتظر الولادة وتحيا في الحب، أعرف أنّ مصيري مرتبط مع المصائر الأخرى التي تتشابك مع بعضها مثل نسيج متماسك لكنني كنت أواصل نسج الحياة بطريقتي..

الساعة هي الثامنة، لم يأت يونس ورائحة الليل تذوي بين يدي وقد أعددت عشاء شهياً لاثنين، هيّأت غرفتنا وغيّرت المفارش وعطّرتها وأحضرت ملابسه والأحاديث التي سأرويها له، لكنه لم يأتِ.

في الأمسيات الماضيات التي تشابك فيها الشوق واللّهفة كنت أستمع إلى البلاغات العسكرية وأنا أرتعش وأبكي وأتخيّله عائداً في نعش، وتتوالى أجراس الهواتف بين بيوتنا، الأشِقّاء والشقيقات والمعارف، يبرق في عتمة الخوف هذا الخيط السري الذي يربط الناس كلها: الحب والأمل والكل يطمئن الكل، بعدها تتوالى الانفعالات وأبكي، ليس هناك ما يمنعني من البكاء وأنا وحدي، أريد أن أتكلّم بما يوازي لوعة البكاء ولا أسقط في اليأس ، ولا أفقد تماسكي، ولا أدع غباراً يشوّه ملامح بيتي، لن يكون البكاء منقصة لامرأة تريد مواصلة الحياة في أرضٍ تحبّها وبين أناس تلوذ بهم وتمنح طفلها المنتظر حياة مطمئنة، فلأبكِ، إنّني أبكي..

أراهم في شريط الأخبار حيث لا شيء سوى الموت..

هو ليس بينهم، يا إلهي كم يتشابه الرجال في الحرب وهم يواجهون

النهاية، هو ليس بينهم، سيأتي، سأتوقف عن التحديق بالأفق إذا لم يأت سأوصد بابي عند الساعة التاسعة، وقبيل الفجر سأفتحه، ماذا لو وصل عند منتصف الليل؟ سأكون مستيقظة، وسنتّحد في عناق عظيم، تعكس المرايا صورتنا الحية، ويلقي الفجر ألوانه على جسدينا ووسائدنا وكلماتنا، في المرات السابقة كان يصل مساء، وكنت أفتح الباب للريح والخطى، فيباغتني ظاناً أنّه منحني لذة المفاجأة، منذ يومين خاطبني صوت ودود:

– أنا صديق يونس، تبدأ إجازته مساء الخميس وهو بخير.

الآن سيدخل دونما صوت، يعانقني ويبكيني ولا ينظر إلى ثوبي وزينتي وتسريحة شعري، بل يأخذني إليه مثل طفلة ضائعة و يهمس لي – أحبّك فأدخل في البكاء.. وأحدّق فيه: أهذا أنت يونس؟

سيحدث هذا وعندما يستبدل ملابسه التي تشع منها روائح الفناء بملابسه النظيفة يعود إليّ بكل تاريخه الإنساني..

واقفة بالباب، مرّ بي أناس كثيرون، الحياة ضاجة، تمضي في مساراتها رغم وفرة الموت والموتى، أدخل البيت، شفتاي جافتان، أعدّ المائدة، آنية مذهّبة وزهور حمراء، أقول: هذا محض عبث، ماجدوى كل هذا إن لم يأتِ؟

أفتح نوافذ الغرف ويدخل البيت هواء ندي مع صخب حياة جموح، يقتحم وحشة غرفتي، كل شيء في الخارج مهدّد بالنهاية، الأمكنة تتبدل معالمها تنهار وتتهدم، الأشجار تكبر وتشيخ، الثمار تنضج، الحب يتّسع رغم الكراهية وأنياب الكارثة، الأنهار تواصل رحيلها نحو الخليج والصغار يكبرون ونحن تطاردنا محنة الفقد.

سيأتي هذا القادم من الحافة الفاصلة بين نهري الموت والحياة،

أرى في عينيه مشاهد المعارك في الجبال والـبراري، أرى وجوه الضحايا الهلعة والجداول الموحلة والرمال المتحركة والجبال الجرداء، الدخان الهائل، الأجساد الفتية الرابضة في خنادق الدم، والأخرى التي نزفت دماها ونسجت أصابعها الباردة صوراً من الدم والتراب، ينقل إليّ كلّ هذا بصوته وعينيه وأنا أرتجف شغفاً وهلعاً، تتبعه رائحة الموت والعرق والغبار ورائحة عشب محترق يالها من رائحة يحملها الرجال من حفر الموت، رائحة قديمة قدم الانسان، يقدّم لي مع الحب حكايات الرعب التي عاشها، أضع أصابعي على فمه، أقبّله ليصمت..

الآن أنا وحيدة، ومن الفرن الصغير في المطبخ تنبعث رائحة الفطائر التي يحبها، سيأكلها مع الشاي، قد يكون الزحام هو الذي أعاق وصوله، أعرف أنّه سيأتي يحكي لي وأنا مأخوذة به أحدّق في وجهه المحبوب، أنظر إلى شعره وعينيه، أمتصّ حزنه ومتاعبه وأبقي له فرح النفس، سيلقي أمامي دعاباته الساخرة، وطرائفه وأخبار صحبه، يدفع إليّ دفتر ملاحظاته أقرأ بعض الخلجات التي كتبها في لهيب الحرب، وتضحكني طرائفه وسخريته الحادّة... أضحك.. أضحك.. يقول أجل ما أجملك وأنت تتألقين بالضحكات والفرح: (أنظر إليه كأنني لا أعرفه، وكأننا لم نطو معا خمسة أعوام في رفقة حية "أهيّء لك الحمام؟"

– هناك نستحم في البرك والجداول إن وجدت، وقد لا نستحم على مدى أسابيع، لا تبالي يا حبيبتي، أعلم أنّ رائحتي منفرة، كدت أن لا أحضر، جرح أحد أصدقائي وكان عليّ أن أرافقه إلى مستشفى الميدان، زملاء لي قاموا بالمهمّة: قالوا لي: لا تتركها. قالوا: إذهب قد يقلق تأخرّك الأهل، أعلم أنّك تقدِّرين وأنّك تحبّينني رغم كل شيء.

قبل شهر كان هذا يجري بيننا، الآن سيأتي ما الذي أفعله أولاً؟..

تتوقف سيارة قرب المنعطف، ترتعش يداي، يجف فمي: الماء، يسقط القدح، فتنقل الشظايا إلى الأرض رعشة يدي..

أأخرج أم أنتظر حيث أنا، هل أسمع رنين الجرس أم أنّه رنين خوفي؟.. لو كان يونس لدخل مثل الهواء أو الضوء وعبر المسافة إليّ من دون إعلان أو رنين جرس.

ثانية يقرع الجرس، وأعدو إلى الحديقة، وفي الباب أرى رجلين، يالرعبي مرّة أخرى، أستعيد توازني بعد أن ميّزت وجه أحدهما: ابن عم يونس زوج شقيقته، يصحبه فتى طويل له عينان حائرتان وعلى وجهه تعبير خجول ويداه مرتبكتان.

– مرحباً.

تمتمت وربما لم يسمعا صوتي.

قال ابن العم: يونس بخير، جئناك برسالة منه، تأجّلت إجازته أسبوعاً، أمّا أنا فقد منحت إجازه استثنائية بسبب جرح في كتفي .

– سلامتك، أجرحك خطير؟

– لو كان خطيراً لما رأيتني أمامك الآن.

وأخذ يحرّك يده: أنظري أستطيع تحريك ذراعي انظري..

– ويونس، ما به؟

قال ابن العم: ما به شيء، ألا تدعيننا ندخل أولاً؟

– يونس بخير.

مشى ابن العم في ممر الحديقة يتبعه الفتى ثم تقدّمتهما نحو الباب

قال ابن العم: أترين هذا الفتى؟.. لقد جاء من الجبهة ليتزوّج، هو ضابط احتياط مثلنا يريد أن يرد على الحرب والموت بعشق الحياة.

– .. أتحبّها؟

سألته بأمومة..

- قال ابن عمنا: لقد فعل المستحيل ليتزوّجها ثم تسألينه أيحبّها؟

هو مجنون بها..

تألّق وجه الفتى واحمرّ خجلاً، وبرقت عيناه، دخلنا البيت، قلت: تفضّلا..

قال ابن العم: دعيه يقدّم الشكر أولاً، وعليك أن تنظري إلى الأمر بتسامح عرفته فيك، هي إجازة يونس تبادلها مع هذا الشاب ليمنحه فرصة الحياة مع الحب، الحب الذي طالما تغنّى به يونس وبشّرنا بفراديسه، قال له:

- إذهب وتزوج حبيبتك ودعني أحلم بامرأتي..

نظرت إلى الفتى نظرة متفحّصة فيها شيء من غيظ خفيف وغبطة..

قلت بصوت جهدت لأنْ يبدو ودوداً:

- مبارك زواجك، عسى أن تسعدها وأن تنتهي الحرب فتعودون إلينا

- أذلك ممكن حقاً؟.. هو الذي كان أشدّ جنوناً من هذا الفتى في حبّه لي؟.. أيضحّي بإجازته من أجل فتًى عاشق؟؟

احترمت كرمه، وأصابني نوع من الإحساس بالحسد لموقفه الذي اعتبرته ضرباً من الإبداع الإنساني، ومنحني هذا الموقف استدلالاً على عمق محبّته لي إلى درجة أنّه أخذ يشيع نمط حياتنا وأسلوب حبّنا بين صحبه ويحرّضهم على الزواج من أجل استمرار حياتنا، حياتهم..

قلت للرجلين.

- هنا يمكنكما أن تغسلا وجهيكما، العشاء مهيّأ لاثنين.

قال ابن العم: سأخابر زوجتي أوّلاً.

همس له الفتى الذي لم ينطق حتى هذه اللحظة.

- وأنا أيضاً، إذا لم تمانع السيدة، سأتصل بها.

قال ابن العم: لا تفعل ستذهب لتفاجئها أمّا زوجتي فقد تجاوزت عمر الاهتمام بالمفاجآت.

قلت له: كلا، لن تفعلا شيئاً قبل العشاء، تعشّيا أولاً، فامرأتك لم تهيِّئ عشاء لاثنين مثل هذا العشاء.

سمعت صوت يونس ينبثق من أعماق روحي، ومن مسامات جسدي ويدي ووجهي ونبضي وجدران بيتي. صوته صوت الحياة - وهمس لي: أحبّك نحن صُنّاع الحياة لا الموت..

استدرت لأضع الطعام على المائدة، انجرف من داخلي زهو الانتظار وحلّ محلّه شيء آخر هو الاعتزاز بحبّنا والحياة، وعندما جلس الرجلان إلى المائدة انسحبت إلى ركن قصيّ وقرأت الرسالة وقبّلتها وأخذت أنتحب بصمت .

أعمال الكاتبة:

١- ممر إلى أحزان الرجال -قصص بغداد ١٩٧٠.

٢- البشارة قصص-بغداد ١٩٧٥ .

٣- التمثال قصص- بغداد١٩٧٧.

٤- إذا كنت تحب، قصص-بغداد ١٩٨٠، دار المدى ٢٠١٣.

٥- عالم النساء الوحيدات- رواية وقصص -بغداد ١٩٨٦، دار المدى ٢٠١٣.

٦- من يرث الفردوس -رواية -الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٧.

٧- بذور النار - رواية - بغداد - ١٩٨٨.

٨- موسيقى صوفية -قصص- بغداد-جائزة القصة العراقية -١٩٩٤، دار المدى ٢٠١٢.

٩- في المغلق والمفتوح -مقالات جمالية-تونس ١٩٩٧.

١٠- ما لم يقله الرواة -قصص دار أزمنة الأردن ١٩٩٩.

١١- شريكات المصير الأبدي -دراسة في إبداع النساء -دار عشتار القاهرة ١٩٩٩، دار المدى ٢٠١٣.

١٢- خسوف برهان الكتبي -رواية - طبعة أولى دار ألواح مدريد -

طبعة ثانية بيت الشعر رام الله ٢٠٠٠.

١٣- الساعة السبعون - نصوص مفتوحةبغداد ٢٠٠٠.

١٤- ضحكة اليورانيوم -رواية - جائزة الرواية بغداد ٢٠٠١.

١٥- برتقال سمية -قصص -بغداد ٢٠٠٢.

١٦- حديقة حياة رواية ط١بغداد ٢٠٠٤ وطبعة ٢ دمشق ٢٠٠٤.

١٧- يوميات المدن - مذكرات - دار فضاءات - عمان ٢٠٠٩.

١٨- سيدات زحل -رواية دار فضاءات -الاردن ٢٠١٠.

في الترجمة عن الانجليزية:

١٩- بلاد الثلوج -رواية -ياسوناري كاوباتا -دار المأمون بغداد ١٩٨٥.

٢٠- ضوء نهار مشرق -رواية أنيتا ديساي -دار المأمون ١٩٨٩، دار المدى ٢٠١٢.

٢١- يوميات أنايس نن -دار أزمنة -الأردن -١٩٩٩، دار المدى ٢٠١٣.

٢٢- شجرة الكاميليا - قصص عالمية مختارة -بغداد ٢٠٠٢.

الأعمال الدرامية:

٢٣- مسرحية الليالي السومرية -جائزة أفضل نصّ مسرحي سنة ١٩٩٤.

٢٤- مسرحية الشبيه الأخير ١٩٩٥ .

٢٥- مسرحية الكرة الحمراء ١٩٩٧.

٢٦- مسرحية قمر اور ١٩٩٢.

٢٧- مسرحية شبح جلجامش ١٩٩٨.

أعمال أخرى

٢٨ – مختارات من القصة العراقية (إعداد و تحرير مشترك) مترجم للإنجليزية والاسبانية ١٩٨٣.

٢٩ – كتاب العودة للطبيعة –دراسة ١٩٨٩.

٣٠ – كتاب (دراسات في حرية المرأة –إعداد وتقديم).

الفهرس



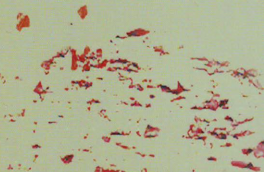
منذ أن صفّقت (نورا) الباب وراءها منطلقة الى الحياة الواسعة خارج أسوار (بيت الدمية) في مسرحية الكاتب (ابسن)- وعدد لا يحصى ولن يحصى من الأبواب تصفّقها النساء وراءهن كل يوم في عملية نمو مثابر لا رجعة فيه ..

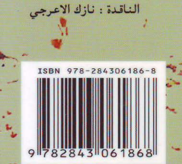
كل بطلة من بطلات (عالم النساء الوحيدات) صفّقت وراءها الباب بطريقة ما رفضاً لواقع لم يعد ينسجم في جوهره مع التحوّلات الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة التي تتلقّفها النساء ويقبضن عليها بتصميم ويستنبتن منها الثمار الموعودة، يحلمن بأفيائها الرحيمة من جور شرطهن المتعسّف، حتى بدا لنا كأنّ هذه التحولات لا تنبت إلا في حقول النساء آمالاً وأحلاماً في حقب ماضيات ثم مواقف وخيارات واعية وقناعات فيما بعد....

إن خيار الوحدة هنا ليس ناتجاً عن هزيمة هؤلاء النساء المأزومات المهمومات ، بل عن مثابرتهن وكفاحهن فجميع بطلات لطفية الدليمي رفضن الصيغ السهلة للحصول على التقييم والتقدير والمكانة الاجتماعية وبحثن عن الصيغة التي تستوعب صبواتهن المجسدة لوعيهن بجوهرهن الانساني ولا يمكن ان يؤدي ذلك الى الهزيمة أبدا رغم انه قد يفضي إلى الانهيار.

إن تصوير المظاهر الخارجية لعملية التحول في حياة المرأة أمر سهل وفي متناول الكثيرين ، لكن الغوص خلف المظاهر لاكتشاف التفاعلات المشجعة أو المحبطة ، المحرضة او المعيقة، الذاتية أوالموضوعية أمر لم يتصدَّ له الكثيرون ويمكنني القول أن لطفية الدليمي خاضت هذه المخاضة الصعبة مؤشرة ليس فقط على قدرات ابداعية فذة بل وقبل ذلك على رؤية متمكنة لحركة المجتمع من خلال وعي متماسك ووضوح رؤية ونضج فكري وعاطفي مكنّها من إنجاز هذا التجسيد الحي والدقيق والمفعم بالحياة كالذي قدمته لنا في (عالم النساء الوحيدات)

الناقدة : نازك الاعرجي




ISBN 978-2843061868
9 782843 061868